

رواية السبعين

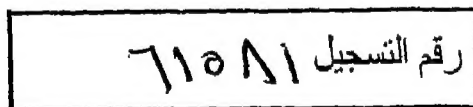
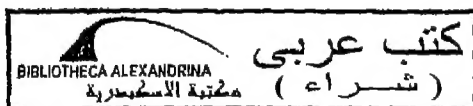
اثنتا عشرة امراة



صالح

اثنتا عشرة امرأة

يوسف السباعي



الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

مقدمة

لشد ما يدهشنى ٠٠ هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أعداء المرأة ٠ والذين يحاولون أن يصفوها بصفات الشر والسوء ٠ ولست أحاول بقولى هذا أن أدافع عن المرأة ٠٠ فانه يدهشنى أيضا أكثر من هؤلاء ٠٠ أولئك الذين ينصبون أنفسهم للدفاع عن المرأة ، ويحاولون تبرئتها من كل شر وسوء ٠

يدهشنى من هؤلاء وهؤلاء ، محاولتهم جمع النساء فى صفة من الصفات ٠٠ سواء كانت حميدة أو شريرة ٠٠ فلسـت أرى هناك صفة واحدة نستطيع أن نشرك فيها النساء ٠٠٠ فهن أنواع متعددة وأصناف متباينة منهن الطيب ومنهن الخبيث ، وفيهن الحسن وفيهن القبيح ٠ وفيهن وفيهن ٠٠ من كل ما يمكن أن يخطر على بال إنسان ، ولست أظن أن هناك ما نستطيع أن نجمعهن به سوى أنهن إناث كغيرهن من إناث الحيوانات والطيور والحشرات ٠ أما أن نقول أن المرأة ملاك رحيم ٠٠ أو أن نقول أنها شيطان رجيـم ٠ فهذا هو السخف بعينه ٠ بل أن مجرد وصفنا إياها بأنها « الجنس اللطيف » ٠٠ وصف غير سديد ٠٠ أو هو من قبيل المبالغة أو المجاملة ٠٠ فأنى أعرف نساء ٠٠ لو قلت عن أحدهن أنها من « الجنس اللطيف » لما كان قولى الا سخرية وتهكما ٠٠ أو كان من قبيل متاداة الشئ بضده ٠٠ كما نقول على الزفت « بياض » ٠ ولقد حاولت فى كتابى هذا أن أكتب عن المرأة بمختلف أنواعها ،

وأن أعرض بعض صورها ٠٠ مستعينا فى ذلك بطريقة القصة ، وهى كما أعتقد طريقة فى الكتابة مستساغة ، فليس أسهل على القارئ من تناول القصة والاقبال عليها ٠٠ فالقصة أشبه ما تكون ببرشامة يستطيع أن يضع فيها الكاتب أفكاره وآراءه ، ويسهل لقارئه بواسطتها ابتلاعها ، دون أن يحس منها ضيقا ولا مرارة ٠ كما أن القصة لا تزيد عن حدوده قد خلت من الأفكار لن يكون لها تأثير فى نفس القارئ أكثر من تأثير برشامة فارغة ٠

وعندما جلست لأكتب مقدمة الكتاب حاولت أن أحدد قيمة المرأة فى حياتنا فوجدتها أشبه بالوقود الذى يحرك الرجل ، والذى يدفعه الى الحركة والى الحياة ٠٠ والنساء يختلفن كما يختلف الوقود ٠٠ فأنواع الوقود التى تحرك الآلات تختلف فى قدرتها وفى نوعها ٠٠ فهى تختلف بين بترول وقمح وخشب وبنزين أحمر وبنزين أبيض وزيت وسخ ، وكذلك النساء يتفاوتن فى أنواعهن وفى تأثيرهن ، وقدرتهن على تحريك الآلات الأدمية ٠٠ وكما أن الوقود قد ينتج عنه انفجار الآلات أو احتراقها ٠٠ ف كذلك النساء قد يكون تأثيرهن الحرق أو التحطيم ٠

وعلى ذلك ، فلا أظن أن الحياة يمكن أن تصبح حياة ٠٠ وأن الرجل يمكنه أن يكون لديه أمل أو مطمح ٠٠ لو خلت الدنيا من النساء ٠٠ وليس هناك من ينكر أنه ما من مطمح للرجل فى هذه الحياة ، الا كانت الرغبة الدافعة اليه ٠٠ هى أرضاء المرأة ٠٠ مهما حاول الرجل انكار ذلك ٠

وقد كتبت ما كتبت عن النساء ، وحاولت تشريحهن وتحليلهن ، ولقد يبدو من كتابتى عنهن أنني قد فهمتهن وألمت بخفياهن ، وأننى قد درستهن دراسة تامة ٠٠ فعرفت المرأة الغبرى ، والمرأة الضالة ، والمرأة الخاسرة ، والمرأة الثكلى ٠٠ أجل قد يبدو من كتابتى عنهن

أننى قد أصبحت خبيراً بأمورهن وقد يكون هذا هو ما دفع بعض
القراء الى أن يعرضوا على مشاكلهم ويطلبوا منى النصيح
والعون ..

ولكنى مع كل ذلك .. ورغم كل ما كتبت لا أستطيع الا أن أعترف
أننى عاجز أمامهن ، وأننى ما أستطعت فهمهن بعد ، وأننى مازلت
حيالهن كطفل غرير ، فما وجهت الى نظرة من عين ساحرة الا تركتني
اتخبط ، وما مست يدي يد ناعمة الا جعلتني أرتجف ، وما خلوت
بوجه فاتن الا وجدتني كصبيبة المدارس .. بى شوق الى أن أحب
وأن أحب ، ويتملكني الخجل من نفسى ، ولا أملك الا أن أوجه اللوم
الى قلبى الذى لا أظن الا أن الشاعر قد عناه بقوله :

قلبي الى ما ضرني ساعى

يكثر أحزاني وأوجاعي

كيف احتراسى من عدوى اذا

كان عدوى بين أضلاعى

ذلك القلب الخافق بين الضلوع .. المترنح فى الحنايا ..
فأقول له :

« آه لو خلا منك الصدر .. لاسترحت من طمعك ومن كهفتك ،
وللكت زمام نفسى وأضحى بيدي الأمر .. متى تهدأ وتستقر ؟
متى تطفأ غلتك ويشبع نهمك ؟ متى تشيخ ومتى يصيبك الوهن
فلا تعود تهفو كلما مر بك ثغر باسم أو عين ساحرة ؟ متى ..
متى .. لقد كللت منك وما كللت أنت »

ويخيل الى أننى أسمع بين الدقات والخفقات :

« لن تطفأ غلتى حتى يكف نبضى ، واكف عن الحياة »

يوسف السباعى

امراة صابرة

انطلق بنا صاحبي بعريته فى شارع قواد متجها الى الزمالك ،
وكانت الساعة التاسعة مساء ، وقد خرجنا من احدى دور السينما ،
ودهشت من صاحبي وخيل الى أن ذهبه قد شرد به فأخطأ الطريق ،
اذ كان علينا أن نعود ادراجنا ، بعد ذلك ، الى مصر الجديدة ،
وصحت به متسائلا :

– الى أين ؟

– الى أنجه هانم •

– ومن تكون أنجه هانم ؟

– سيدة تركية لطيفة ستعجبك كثيرا ...

– وفيم ذهابنا اليها ؟ !

– لناكل عاشورة •• فقد دعتنى لتناولها ، ولا أظنها الا مرجبة

بوجودك معى •

ووقفت العربية •• ودلفنا الى الدار •• دار دل مظهرها على

مدى ما يستمتع به أهلها من ثراء وسعة من العيش •• ولقيت المرأة

•• بين الشباب والكهولة •• لم تستطع السنون أن تمحو رونق

شبابها أو تذبل نضرتة .. وأحبست بنفسها ورقة طبيعية غير مصطنعة ، ويحديتها عذوبة غير متكلفة .

وعندما غادرنا الدار علمت من صاحبي أن المرأة أرملة طبيب معروف لم يطل العهد على وفاته ، وأنها تعيش في الدار وحيدة مع مفلقتها .. وسمعت من صاحبي ثناء عطرا عليها ، ومديحا في خلقها وفي سمو نفسها .

وتكررت زيارتي للسيدة مع صاحبي بضعة مرات .. دون أن أعرف بالضبط سبب صلتها بها .. أو أحدد مدى علاقته معها .. فقد كنت أشك كثيرا في دعواه أنه كان صديق زوجها .. إذ لم أسمع بهذه الصداقة من قبل .. حتى فوجئت ذات يوم بمعرفتي خبر زواجه بها .. أقول أنني فوجئت لأنه لم يخطر لي ببال قط أن صاحبي هذا سيتزوج لأنني أعرفه مبغضا للزواج معرضا عنه ، حتى لقد جاوزت به السن مرحلة الشباب دون أن يفكر فيه ، بل كان يبدو لي أنه قد عزم على أن يقضى ما تبقى من عمره « أعزب » ، وأنه قد صمم على ألا يتيح الفرصة لامرأة ، أي كانت ، أن تفسد عليه حياته .

وفوجئت أيضا .. لأنني قد رأيت الرجل بعد طول صيام ، أظفر .. كما يقولون « على بصلة » .. أو على الأقل هذا ما خيل لي .. فمهما قيل عن كرم خلقها ، ورقة نفسها ، فهي على أي حال أرملة ذات أبناء .. قد ولى الشباب عنها أو كاد ، كذلك البصلة قد تكون خضراء ناضرة أو حمراء طليانية ممثلة ، ولكنها لن تزيد عن أن تكون بصلة .

كذلك أدهشني من جانب البصلة ، أعني المرأة ، بعد كل ما تخيلته فيها من اتزان وعقل وخلق .. أن تقدم على الزواج ولم يمض عام على وفاة زوجها .

وهكذا بدأ لى الزواج من الجانبين شيئا يبعث على الحيرة - وحاولت أن اتلمس لهما عذرا ، واخذت أفكر ٠٠ فانتهى بى التفكير الى تعليل واحد لست أستطيع أن أجزم بمدهاه من الصحة ٠٠ ولكن لا أخال شخصا قد عرف بنبا الزواج الا انتهى الى مثل هذا التعليل ، وهو أن الرجل قد أغراه ثراء المرأة ٠٠ وأما المرأة فقد فتنتها الرجل ٠٠ فهو على رغم ما قلته من تجاوزه مرحلة الشباب ، ما زال يحتفظ بوسامته وقدرته على اجتذاب النساء ٠

وتعودت بعد ذلك أن أزور صاحبى فى داره الجديدة ٠٠ اعنى دار الأرملة الثرية بالزمالك ٠ وفى ذات يوم ، ذهبت لزيارته قلم أجده ٠٠ ودعتنى السيدة الى البقاء لانتظاره فجلست اجانبها اطراف الحديث ٠

ولست أدري كيف ساقنا الحديث الى ذكر زوجها السابق ٠٠ ولكنى وجدت السيدة تطرق برأسها برهة ، ثم ترفع وجهها الى متسائلة :

— لا شك أن زواجى يمثل هذه السرعة قد أثار دهشك !
وشعرت بحرج شديد ، ولم أدر بم أجيب ٠ ان قلت أنه قد أثاره ٠٠ كان قولى بمثابة اتهام لها بارتكاب خطأ أثار الدهشة ٠٠ وان قلت انه لم يثر دهشى فكأننى أراها امرأة سوء لا يدهش المرء أن يراها ترتكب خطأ ٠

ولكن السيدة لم تنتظر جوابى بل أردفت قائلة :
— أنا أعلم أنه شيء يثير الدهش ٠٠ فقد كان يجب على أن اصبر وانتظر ٠٠ على الأقل حتى يتم العام ٠ ولكن دعنى أقص عليك قصة مسلية ٠٠ أغلب ظنى أنها ستزيل كثيرا من دهشك :
— كان ذلك منذ زمن بعيد ، وكنت أعيش فى انقره مع أبى وهو أحد الأطباء الباطنيين وكنت قد بلغت السادسة عشرة عندما بدأ

الضوء يخبو من عيني أمى شينا فشيئا ، حتى انتهى بها الأمر بعد بضعة شهور الى فقد بصرها ، فأصابنا جزع شديد ، فقد أحسنا مبلغ ما كانت تقاسيه من ألم نفسانى شديد .

وفى ذات يوم أقبل أبى وقد تهلل وجهه وشع من عينيهِ بريق أمل . . . وأنبأنا أن أعظم أطباء العيون فى أوربا يمر الآن بأنقره . . . وهو يظن أنه قد يستطيع أن يعبد الى أمى بصرها .

وفى اليوم التالى حضر أبى ومعه مساعده ، وهو زميل أصغر منه كان يعتبر صديق العائلة . . . ومعهما رجل ذو لحية صغيرة مدبية لم أشك فى أنه الطبيب الأوروبى الشهير . وعندما انتهى من فحصه عن أمى سمعته يقول : « هناك بعض الأمل . . . اننا نستطيع أن نرد اليها بصرها ، ولكنها قد لا تستطيع الاحتفاظ به . . . على أى حال . . . لنجرب . . . قلن يكون هناك أسوأ مما هى عليه الآن » .

وأجريت العملية . . . فكانت النتيجة باهرة ، أكثر مما كان يخطر لنا على بال . . . فقد أصبحت تستطيع الابصار أحسن منها فى أى قوت مضى .

وكان الوقت ربيعا ، والطبيعة قد اكتست أبهى حللها ، كأنها قد رغبت ألا يقع بصر أمى الا على كل ما هو نضر وجميل ، وانى لأنكرها فى ذلك الوقت ، وقد وقفت بجانبى فى احدى الشرفات المطلة على الحديقة بجسدها الفارع المشقوق بلا ترهل ولا استرخاء ، ورأسها الصغير الجميل ، وملامحها الساكنة الهادئة ، وقد سبحت بعينيها فى الأفق عندما اختفت الشمس وخلقت للسماء حمرة الشفق . . . فصبغ الكون بلون أرجوانى جميل ، وبدأت الأرض منمقة مزركشة ، قد كستها الزهور المفتحة ، وحمل الينا النسيم عبير زهر البرتقال فملأت أمى منه ربتيتها فى شهيق طويل كأنما تعب منه عبا . . . وسمعتها

تهمس كأنها تحدث نفسها : « ليحدث بعد ذلك ما يحدث ما دمت قد أبصرت هذا .. انى سأختزن فى نفسى من هذا الجمال ما يعيننى على المضى فى حياتى .. حتى ولو لم أبصر بعد ذلك » .

وفى الأشهر القلائل التى أعقبت ذلك بدا لى أنها تحاول حقا ، أن تختزن فى نفسها ذكريات جميلة لكل ما ترى .. لقد كانت لا تبصر المراثيات مجرد ابصار عابر . بل كانت تبدو وكأنها تحاول أن تستذكرها ، كما يستذكر تلميذ درسه لكى يعيه رأسه ، لقد كانت تحاول أن تبصر ، لا بعينها فقط ، بل براسها وقلبها .
ولقد كنت أجدها أحيانا تناديني فجأة .. ثم تلف زراعيها حول كتفى وتشملنى بنظرات نهمة ، وتحدث نفسها هامسة :

– شعر ذهبي .. ووجه أبيض دقيق التقاطيع ، وعينان خضراوان
ممثلتان بالأحلام ..

وكنت كثيرا ما ألحها تشخص فى أبى بنفس النظرات وقد استلقى فى مقعده مستغرقا فى القراءة .. فكنت أذكر قولها : أنها ستختزن من المراثيات ما يعينها على الحياة فيما لو فقدت بصرها مرة أخرى .
ولم تمض بضعة شهور حتى خبا ضوء عينيها مرة ثانية ، وفى هذه المرة لم يكن هناك أمل فى بصره ، أو رجاء فى شفاء ، فقد ذهب بصرها الى غير عودة .. وأملت بها ظلمة دامسة لا يلوح لها فى حلكتها قبس من ضياء .. وكانت هى تدرك الحقيقة ، ومع ذلك فقد بدا لى أنها قانعة راضية ، وأنها كانت قد أخذت أهبتها لذلك ..
أو كما قالت .. اخترنت لنفسها من الذكريات ما يجعلها فى غير حاجة الى متعة البصر .. لقد وعت كل ما تحب أن تراه فى ذهنها وفى قلبها .. ان الظلمة لم تفاجئها هذه المرة ، ولم تأخذها على غرة .. حتى لقد سارت حياتها ، كما كانت من قبل ، دون أقل تغيير

أو تبديل . فما انقطعت من زيارتها للأصدقاء ، ومن خروجها للنزهة والتجوال فى الأسواق . . .

وكننت أصرطحبها أينما سارت ، وقد أسندت يدها بخفة على نراعى وسارت فى ثقة واطمئنان ، وكان أحب الأشياء إليها أن نخرج سويا للنزهة . . وأن أصف لها كل ما أراه وصفا دقيقا . . وتعودت انا ذلك الأمر حتى أجده كل الاجادة ، وأصبحت الألفاظ تنساب من شففى فى سهولة كائى أقرأ صفحات كتاب ، وكانت كثيرا ما تحدثنى ضاحكة :

– لقد أصبحت مدهشة . . حتى لكائى أرى من حديثك كل ما ترين ، ولكنى لا أود أن أعتمد عليك كل الاعتماد ، لأنك ستغادرينى فى يوم ما ، وتذهبين فى طريقك . أجل . لا بد لى من خادمة تقودنى من الآن .

– يا اماء ! انى لن أفارقك أبدا . . حتى نهاية العمر .

وفى ذات مرة عدنا الى الدار ، فوجدت أبى ومساعدته قد جلسا فى الردهة ، وعندما ذهبت أوى الى حجرتها أخبرنى أبى أنه قد أوصى على خادمة تتولى عنى مهمتى . . فقلت له فى دهشة : « اننى لا أشكو شيئا ، وانى لم أطلب أن يتولى عنى أحد امرأى » . فقال أبى : « ان هذا الأمر لا بد منه ، ان عاجلا أو آجلا ، فلا بد أن يأتى يوم تفارقينها فيه » .

فأجبت : « ان ذلك اليوم لن يأتى ما دام أجسدا على قيد الحياة !! » .

وسمعت الشاب يتمتم قائلا :

– لا أظنك تتخيلين أنك ستقضىين حياتك هكذا ، مجرد ظل . . لأنك لا شك ستكونين لحياتك الخاصة ، ولزوجك وأولادك . ونفذت هذه الكلمات الى نفسى كأنها السهام . فما من أحد فى

هذه الحياة يرغب أن يكون مجرد ظل لآخر ، وما من شك في أن
 آمالا تراود نفسى فتصور لها حياة مستقبلية مقعمة بالهناءة وبيتا
 جميلا وزوجا وأولادا ، ولكننى كنت لا أدع نفسى تنساب مع هذه
 الآمال ، فقد كنت أعتقد أن هذه الدنيا لا بد أن يضحى فيها البعض
 لكى يسعد البعض الآخر ، وكنت أرى القدر قد جعلنى من ذلك البعض
 الذى يجب عليه أن يضحى ، فقبلت التضحية ، إذ كنت أحس أن أمى
 لا تستطيع الاستغناء عنى ، وأن أحدا لا يستطيع أن يقوم لها بما
 أقوم به ٠٠ لقد كان يجب على أن أعوض لها بصرها الذى فقدته .
 ولم أشك فى أن أبى ومساعدته قد تحدثا عنى مليا ، وخيل الى
 أنى استطعت أن أخمن موضوع الحديث ، وإن كنت لم أستطع أن
 أعرف ما قيل بوجه التحديد .

لقد تحدثنا بلا شك عن مسألة زواجى ٠٠ فأغلب ظنى أن هذا هو
 ما أثار مسألة الخادمة ٠٠ ولكن كيف تحدثنا ، وماذا قلنا ؟ لست
 أدري ، لقد كان مساعد أبى - كما قلت لك - صديق العائلة ، وكنت
 أعتبره أخا أكبر ، ولا شيء أكثر من هذا ، والواقع أنه كان رجلا
 هادئ الطبع ، كريم النفس ، جميل الخلق ، ذا مظهر محترم ٠٠
 رجلا يستطيع المرء أن يركن اليه فى الشدة والضيق ، ولكنى مع
 ذلك لم تخطر على بالى فكرة زواجه ٠٠ إذ لم يكن هو الزوج الذى
 تصوره لى الأحلام ، والذى كنت فى قرارة نفسى أتلهف عليه ، لست
 أدري ٠٠ لم ؟ ولكن هذا هو ما كنت أحس به .

ولكن ما لى ولهذا الحديث ، وأنا التى قرض عليها القدر قبول
 التضحية ٠٠ ورسم لها الطريق الذى لا تستطيع أن تحيد عنه ،
 وخاصة بعد شهر من هذا الحديث ٠٠ عندما أصابنى القدر بأول
 فاجعة حددت لى الطريق تحديدا واضحا ٠٠ فقد مات أبى ، وأصبحت
 وحيدة مع أمى !!

ومرت بى الأيام بعد ذلك ، وأكون كاذبة مدعية ان قلت انها لم تكن طويلة معلقة ، وأن ثورة مكبوتة لم تكن تعتمل فى صدرى وأنا فى مثل هذه السن الثائرة الفائرة التى تحس فيها الفتاة بنهم الى الحياة ، والتى لم أكن أفعل فيها شيئا سوى ملازمة أمى والحديث اليها ، وسوى بعض نزوات يصحبني فيها مساعد أبى الذى كان شديد العطف على .

وفى مرة من هذه المرات ، سألنى الزواج ، قائلا بصراحته وهدوئه اللذين عهدتهما فيه . . محاولا أن يواجه فى قوله كل الحقائق تى تحيط بنا :

— أنا أعلم اننى قد أكبرك كثيرا ، وأعلم أيضا أنك لا تحبيننى . . أعنى ذلك الحب المشتعل الذى يتأجج فى الصدور ، ولكننى أعتقد أننا قد نستطيع أن نسير جنبا الى جنب ، وأن يعاون كل منا الآخر فى حياته . . ويمكن لأمك أن تعيش معنا . . لقد أحبيتك دائما . . وتمنيت فى كل لحظة أن نكون شريكين فى حياة واحدة .

وسادت بيننا فترة صمت طويلة ، عصفت خلالها برأسى الأفكار بشدة وعنف ، ثم أجبت فى النهاية بنفس الصراحة :

— انى لا أكن لك سوى الحب والتقدير . . ولكنى لا أرغب فى الزواج ، أو على الأقل ليست بى رغبة فيه الآن .

هل حقا لم أكن أرغب فى الزواج ؟ ! أو أن الرجل نفسه لم يكن الرجل الذى صورته لى الأحلام ، والذى كان يتلهف عليه القلب ؟ .

لم أدر الحقيقة وقتذاك . . وقتذاك فقط ، لأننى بعد بضعة أيام ، بدت لى جلية واضحة ، عندما صادفت رجل أحلامى نفسه ، بدمه ولحمه ، فعرفت أن المسألة لم تكن مسألة رغبة عن الزواج . . بل كانت رغبة عن الشخص نفسه .

لقيته فى احدى الحفلات ، فتى مصرياً بالسفارة المصرية • ولم يستغرق الأمر منى شيئاً من الوقت أو الجهد ، لأتبين فيه أنه الفتى الذى انتظره ، فقد وفر على القلب ذلك الجهد والوقت ، عندما أحسست به قد خفق بين الضلوع •• وهفا وترنج كالثلج •• لقد كان القلب أدرى وأعلم •

وأخذت الصلة تزداد بيننا ، ودعوته لزيارتنا فى دارنا ، كما دعانا لزيارته •• وهنا بدأت أحس بثقل القيد الذى كنت موثقة به ، وبدأت أشعر بلهفتى على شيء من الوقت يكون ملكاً لى ، وعلى شيء من الحرية تمكّننى من التصرف كما أشاء ، حتى كان ذات يوم أقبل علينا مساعد أبى ومعه فتاة صغيرة رقيقة قال انها فتاة يتيمة لا عائل لها ، وأنه ظن انها قد تساعدنا فى خدمة أمى •

ولا تسلم عنى فرحتى الشديدة بالفتاة ، فقد أحسست أنها ستستطيع أن تهيم لى ذلك الوقت والتحرر اللذين كنت أتلهم عليهما •• وإن كنت لم أحاول أن أظهر فرحتى حتى لا أؤلم أمى •• وحتى لا يداخلها شعور بأننى قد أصبحت أضيق بها •

وكانت الفتاة ذكية فطنة •• فسرعان ما عرفت بيوت الأصدقاء والأماكن التى كنت ارتادها مع أمى ، وأخذت تقوم عنى يرافقتهما فى كثير من الأوقات •• وبدأت أحس أنى قد أصبحت - الى حد ما - حرة طليقة •• وأنى لم أعد بعد ظلاً ، بل أصبحت أصلاً أتصرف فى نفسى وفى أوقاتي •• وكنت فى ذلك الوقت فى أشد الحاجة لذلك حتى أستطيع أن ألقى صاحبى •

ولست أظننى فى حاجة الى أن أصف لك تلك الفترة من العمر •• الفترة التى تصاب فيها الفتاة بنشوة الحب الحقيقى •• والتى تحس فيها أنها لا تملك من أمر نفسها شيئاً •• وأن زمامها قد افلتت من عقلها وأصبح طوعاً ولقلبها واحساسها •• وأنها قد أصبحت مقودة

بعاطفتها ومشاعرها • دون أن تجد في ذلك غرابة أو تحس غضاضة
• لأنها سكرى تترنج في روضة من رياض الحب فواحة غناء •

أجل لن أحاول أن أذكر لك التفاصيل - رغم أنني أجد في نكورها
لذة ممتعة - لأنها شيء يطول شرحه ولأنى لا أظن هناك أمراً لم تمر
به تلك الفترة • • مهما اختلف مظهرها ، وتنوعت ظروفها • • ولكنى
أستطيع أن أخلصها لك في بضع كلمات هي أن تلك الفترة لم تكن
من دنيانا في شيء ، أو أنها مرت في غفلة من الزمن ، أو هي حلم
من أحلام الدجى •

وهكذا دأبت أرشف من كأس الهوى ، أو على الأصح ، أعب منها
عباً ، حتى كان ذات يوم أنبأنى الفتى وقد أسندت برأسى الى صدره
أنه سيعود الى مصر • • فأحسست بقلبي يفرح بين جنبي • • وبدأ
على وجوه شديد • • ولكنه همس في أذنى :

- سنعود سوياً الى مصر • • مصر الجميلة العزيزة • • تؤكد
لك أنك ستحبينها كما أحببتنى ، ستحبين نيلها العذب القوى يمتد
في بساطة وهدوء • • ينساب بين بطاوحها في ثقة واعتداد • • كأنه
السيد الكريم المحبوب • • وحقوقها المترامية الخضراء تهز أطرافها
نسمات خفيفة وتسمع منها حفيفاً كأنه تسبيح بحمد الله والنيل
والأرض الخصبة الطيبة ، ستحبين أهلها الكرام الطيبين ، ستحبينها
كما أحبها أنا • • لأن كل ما فيها يحب •

وفعلت كلماته فعل السحر في نفسى ، فلقدت كنت عاشقة ،
والعاشق يؤمن بكلام صاحبه ، كما يؤمن بكلام الله • • وأحسست
أنى قد أحببت مصر فعلاً قبل أن أراها • • وتمنيت لو وجدت نفسى
بعد غمضة عين بجوار صاحبى على شاطئ النيل •

وعدت الى الدار بعد ذلك ، وتجنبنت لقاء أمى ، فقد خشيت أن
تقرأ ما بنفسى ، ولكن تجنبى اياها لم يقد شيئا ، فقد كان يخيل الى
أنها تعرف كل شيء . وأنها تحسن أننى قد بت بمعنى عنها ، وأننى
طرحتها جانبا وسرت فى طريقى .

وتعود صاحبى زيارتنا فى الدار . . ورغم ما كانت تلقاه به أمى
من حفاوة ظاهرة . . فأننى كنت أحس أنها لا ترتاح اليه كثيرا ، بل
أكثر من هذا كانت تبغضه . . فأغلب ظنى أنها كانت ترى فيه عدوا
يوشك أن ينتزع منها شخصا حبيبا ان لم يكن قد انتزعه فعلا .

وأصيبت أمى بعد ذلك بمرض سيب لى جزعا شديدا . . وحضر
زميل أبى لعيادتها ، ولم يكن مرضها شيئا مفاجئا . فقد بدا عليها
الهبال ، وأصابها أرق قبل ذلك ببضعة أسابيع ، وبعد أن فحصها
الرجل انفرد بى فى احدى الحجرات ، ثم قال فى هدوء :

— يجب علينا أن نواجه الحقائق ، ان أمك تعاني أزمة نفسية
شديدة .

— أزمة نفسية شديدة ؟ . . ماذا تعنى . . ولم ؟ ! .

— لا داعى للتجاهل ، دعينا نتكلم بصراحة أكثر ، ان أمك تعلم
كما يعلم كل انسان عن هذا الحب الذى بينك وبين الفتى المصرى .
وتصاعدت الدماء الى وجهى ، وحاولت أن أقاطعه ، ولكنه
استكننى بأشارة من يده . . وأردف بصوت ملؤه الرقة :

— انى أحدىك كصديق ، ان الأمر نتيجة طبيعية لكل ما حدث . .
لقد كنت ظلا لها خمس سنوات طوال ، فلا أظنك تتخيلين أنها ستتنازل
عنه بيسر . . أنها تحاول دون أن تشعر أن تستعيد اهتمامك بها ،
أنها تخشى أن ينزعك منها صاحبك ، وتخشى أيضا أن تسبب شقاءك ،
فهى بين الأمرين فى صراع نفسى عنيف ، قد يكون ذا خطورة عليها

ان لم نتدارك أمره ، وانى على استعداد لأن أقدم لمعاونتك كل ما تطلبين .

وسادت فترة صمت استغرقت خلالها فى تفكير عميق ، وبدأ لى انتنى فى غمرة الحب قد نسيت أمى المحبوبة ، وانى قد أهملتها شر أهمال . وأحسست بضميرى يخزنى وخزا شديدا . لقد أعمانى الحب وأضلنى الهوى ، فكنت أنانية الى أبعد حدود الأنانية ، وتذكرت ما كنت أحدث به نفسى عن التضحية ، فأجسست نحو نفسى بالازدراء . وأيتنى تافهة حمقاء ، كصادية اندفعت تعدو وراء أول سراب لاح لها . وتواردت الأفكار على رأسى فى سرعة البرق . فوجدت أنه من العبث أن أمل فى زواج صاحبى . لأنه يستحيل على أن أترك أمى وأسافر معه الى مصر ، ولا سيما بعد أن رأيت ما قد صارت عليه حالتها من السوء بعد أهمالى إياها . فما اظننى قد أصبحت أنانية شريرة الى هذا الحد . وكذلك كان من الحق أن أفكر فى أن تسافر معنا ، فأحمله عيب امرأة عمية ، وخاصة اننى أعلم تماما أن أحدهما لم يرتح الى الآخر قط . إذ كلاهما يحسن غيرة من صاحبه . ولم أكن أشك فى أن الحياة معهما سويا لن تكون سعيدة بحال من الأحوال .

وفى خلال هذه الثورة الذهنية التى عصفت بزأسى بدأ لى أن خير حل أضع به حدا لتلك المتاعب ، هو أن أتزوج هذا الرجل الواقف أمامى ، فما اظننى أطمع فى الحياة فيمن هو أجمل منه خلقا أو أطهر نفسا ، لقد كان رجلا طيب القلب . وأخيرا قطعت حبل الصمت بسؤاله فجأة :

— هل ما زلت على استعداد للزواج منى ؟

وذهل الرجل ، ولكنه أدرك بسرعة ما قادنى اليه تفكيرى ، فأجاب بهدوء :

– طبعاً ما زلت • ولكنى لا أريد أن أكون حائلاً بينك وبين من تحبين • لا أريد أن أكون دواءً مرا تحاولين به التخلص من الأم نفسك ، اننى لم أقصد أن أعاونك بهذه الطريقة ، وانى لا أريد أن أكون سكيناً تقطعين به حبل أمالك • لا • لا • دعينا من مسألة الزواج الآن ، فأنا أعرف أنك فى غمرة يأس • ولكننى كنت قد صممت • وذهبت الى أمى لأعلنها بالأمر ، فبدأ عليها فرح شديد •

ولست أجد داعياً لأن أصف لك الأيام القلائل التى مرت بعد ذلك حتى تم الزواج •

أتسمع يا سيدى ، عن ذلك الذى يسمونه « عاصب البطن » وهو شخص قد عصب بطنه حتى يحتل الجوع ، ويصبر على السغب ؟ لقد كنت وقتذاك « عاصبة القلب » لأنى عصبت قلبى حتى احتمل جوع الحب ، وحتى أصبر على سغب القلب • وحتى لا أصاب بضعف وينفد صبرى • فأعدو لأرتى بين أحضان صاحبى وأشبع منه قلبى الجائع ونفسى الصادية •

أجل يا سيدى • لقد علمت نفسى كيف تكون امرأة صابرة • وقد تتهمنى ، يا سيدى ، بأنى لم أكن أحب صاحبى حباً حقيقياً ، والالما استطعت الاقدام على مثل هذا الجنون ، أو قد تقول عنى اننى ذات ارادة خارقة ، ولكن الواقع اننى كنت أشبه بمرضى حقنوه بالمخدر قبل اجراء العملية ، وكما يفيق المريض من تأثير المخدر بعد انتهاء العملية فيحس بالام الجراح التى أحدثها مبضع الجراح ، بدأت أنا الأخرى أفيق لأحس فى قلبى جرحاً عميقاً •

وغادرت البلدة عقب أن تم الزواج • مع زوجى والذى لنقضى فى الريف « شهر العسل » (يآله من اسم على غير مسمى) ، ولم أحاول أن أرى صاحبى قبل الرحيل ، اذ كنت فى غير حاجة لأن أزيد

الجرح عمقا ، وأى فائدة فى أن اراد بعد تلك الحماقة التى ارتكبتها ؟
وعاد هو الى مصر ، بعد أن عرف بالأمر طبعاً ٠٠ وهكذا
افترقنا دون أن يرى أحد منا صاحبه ، ودون أن يودعه بكلمة ، اللهم
الا رسالة حملها الى البريد ، لا ادعى أنني وجدت فيها الشفاء ، فقد
كان الجرح أعمق من أن تضمده مجرد كلمات ، ولكننى مع ذلك
وجدت فى هذه الكلمات شيئاً من العزاء ، اتصبر به كلما أضناني
الشوق وعصف به الحنين ٠٠

★ ★ ★

وصمتت السيدة ، ثم رأيتها تنهض وتختفى فى إحدى الغرف
برهة ، ثم تعود ثانية وقد حملت فى يدها ورقة صفراء باهتة مطوية
بعناية ، ودفعت بها الى قائلة :
- هذه هى الرسالة ٠٠ هذا ما تركه لى صاحبى .
وفضضت الورقة فوجدت بها بضعة أسطر باهتة ، هى ما يلى :
« لا عتاب ولا حساب ٠٠ فانى لا أرى فى ذلك نفعا بعد أن انتهى
الأمر ٠٠ انى أحاول دائما أن التمس لك العاذير ، لأنى أحبك -
ولا أستطيع الكف عن حبك ، ويخيل الى - دون أن أعرف حقيقة
الأمر - أنك لست المخطئة لأنك لا يمكن أن تخطئى ٠٠ فانا أعرف
قلبك الجميل ونفسيك الصافية ٠٠ يا حبيبتى ٠٠ انى سأنتظر ،
لا تقولى ماذا ينتظر ؟ ولا تقولى أحقق ينتظر بلا أمل ، أو عاشق
يلقى الوعود جزافا ، فانى سأنتظر ٠٠ من يدري ؟ » .
وانتهيت من قراءة الخطاب !! ثم وقع بصرى على الامضاء ٠٠
فأصابتنى دهشة شديدة ٠٠ فلقد وجدته بامضاء صاحبى ، وعقدت
الدهشة لسانى فلم أستطع الا أن أقول :
- أهو ؟
وهزت رأسها هزة خفيفة وأجابت :

— أجل ٠٠ هو ١٠٠ !

ثم اتمت القصة فى كلمات قلائل ، وقالت :

— لقد مرت الايام والأشهر والسنون ، وماتت أمى ٠٠ ثم
أضطرتنا الظروف الى المجيء الى مصر ، فاقمنا فى القاهرة ٠٠ ثم
مات زوجى ، والتقيت بصاحبى وصاحبك ٠٠ فوجدته ما زال ينتظر
٠٠ اترى يدهشك بعد ذلك أن أتزوجه قبل أن يتم عام على وفاة
زوجى ؟ !

اترانى بعد كل ما سمعت ٠٠ امرأة متعجلة ٠٠ ام امرأة
صابرة ١٩

امراة حاسرة

ليس أعجب فى هذه- الحياة من ذلك التناقض الذى تظهر به الأشياء اذا ما اختلفت وجهات النظر اليها ٠٠ فلو أننا اخترنا احدى الحقائق الثابتة أو احدى الحوادث العابرة التى تمر بنا ٠٠ وحاولنا أن نقارن بين المظهر الذى تبدو به لبضعة أشخاص متباينين ٠٠ لا صلة بينهم ولا شبه ٠٠ ولو حاولنا أن نزن وقعها فى نفوسهم لراعنا ذلك التناقض العجيب الذى يظهر به الشيء الواحد ولعلمنا أنه ما من شيء فى هذه الحياة له قيمة فى حد ذاته ، وانما قيمة هذه الأشياء كائنة فى قلوبنا وفى الطريقة التى تعكسها بها مرآة نفوسنا ٠٠ ولنضرب مثلاً ٠٠ جنازة فى طريق ٠٠ قد نمر بها فى عربة ونحن فى عجلة من امرنا ٠٠ فيعطلنا ازدهام المشيعين لحظة أو لحظات ٠٠ فنظهر السخط والتبرم ٠٠ ولا تزيد نظرتنا الى ذلك الذى يوشك أن يثوى فى جدته ٠٠ عن نظرتنا الى وسيلة تعطيل كقطار يمر بجسر لولبى أو جندى مرور فى تقاطع طرق ٠٠

أجل ٠٠ هذه هي الصورة التأففة التي يبدو فيها ذلك الميت الذي قد يكون موته حدثا في نفوس آخرين ، وقد يكون في رحيله الى قبره — ذلك الرحيل الذي لم يسبب لنا أكثر من تعطيل دقيقة أو دقيقتين — قد خلف قلوبا موجعة وعيوننا دامعة ، ومع ذلك فما اظننا الا خيرا من سوانا بالنسبة لذلك الميت ٠٠ على الأقل خير من ذلك الحانوتي الذي لم ير فيه أكثر من صفقة رابحة اثلجت صدره وافرحت قلبه ، وخير من الترابي وغيره من مقرئي القبور الذين لم يروا فيه أكثر من موسم شغل .

هذا هو مثل لتلك الحوادث العابرة التي تصادفنا كل يوم ، ومثل آخر ٠٠ هذه القصة التي سأسرد حوادثها والتي لم ار فيها في أول الأمر الا قصوصة تأففة لا تستحق أن تشغل من ذهن المرء الا بمقدار سماعها ، وبمقدار كلمة أو كلمتين يعلق بهما عليها ، ثم يجاوزها الى غيرها من أقاصيص الحياة .

ثم رأيت القصة بعد ذلك من زاوية أخرى ٠٠ زاوية قريبة ٠٠ أبدت لي الكثير من التفاصيل والخفايا ، فراعنى ذلك التناقض بين ما كنت أرى وما رأيت .

القصة من الزاوية الأولى ، لا تزيد على خبرين نشرا متعاقبين ٠٠ تفصلهما بضعة أيام ٠٠ كلاهما لم يشغل من الصحيفة التي نشر بها الا بضعة أسطر مقتضبة يمر عليها المرء ببصره مرورا عابرا ، وكان الخبر الأول هو خبر زواج مطربة من رجل غير معروف ، والخبر الثاني هو وفاة هذا الرجل غير المعروف ، وقد أثار الخبر الأول في نفسى بعض الدهش من أن تتزوج المرأة أخيرا بعد طول عهدها بالوحدة ، وبعد أن تركت فرصا عديدة تفلت من يديها ، ولكننى لم أعلق على الخبر بأكثر من أنها قد تكون أحبت الرجل ، وقد يكون

الرجل أحب ثروتها الطائلة ٠٠ أما الخبر الآخر فلم أر فيه أكثر من نوع من سخرية القدر ، وما كنت أتوقع من القدر سوى السخرية .
ثم امحى من ذهني بعد ذلك كل شيء عن الرجل الراحل والمطربة الأرملة ، وجرفهما تيار النسيان الجارف القوى ، ونأى بهما عن الذاكرة ، حتى قادتني الظروف ذات يوم الى لقاء المرأة وكان اللقاء في بيتها الأنيق في شارع الهرم ٠٠ وقد أدهشني أن أجدها تتشجع بالسواد ، ولكنني تذكرت حينئذ ذلك الرجل الذي تزوجها ومات بعد بضعة أيام ، وعجبت أن تكون المرأة قد حفظت له عهد تلك الايام القلائل التي لبثها معها .

وقدمت اليها على أنني « فلان » - كاتب قصة - واذكر أنني شعرت بشيء من الزهو عندما رأيتها تضغط على يدي وتقول باسمه انها قرأت لى ، وجلست واياها في حديقة الدار بعد أن انصرف الزائرون ، ورأيت منها صفاء ذهن ، وحدة ذكاء ، وفي حديثها طلاوة ورقة .

ووجدتها تسألني بعد برهة :

- حدثني كيف تكتب قصصك ؟

- حوادث من الحياة ٠٠ أضيف عليها بعض التنميق والتحوير ، وأضفى عليها بعض التهويش ، ثم أحاول أن أجعل لها خاتمة بها شيء من الغرابة !

. وضحكت المرأة لتلك الصراحة ثم قالت :

- ما رأيك فيمن يهب لك قصة ؟ هي - على حد قولك - حادثة من الحياة ، ولكنني أؤكد لك أنها لا تحتاج منك الى ذلك التنميق والتحوير والتهويش ، ولن تحتاج الى أن تبتكر لها خاتمة عجيبة ٠٠ بل كل ما عليك هو أن تضعها كما هي ٠٠ بتفاصيلها وحذافيرها ٠٠ وأؤكد لك أنها ستكون خير ما كتبت .

وضحكت بدورى وقلت لها :

- كثيرون غيرك قالوا ما قلت واضاعوا وقتى ووقتهم فى قص حياتهم على متخذين منها عجبا ، واخرج منهم فى النهاية بلا شيء ٠٠
او بما لو فكرت فى كتابته قصة لما سمح لى أحد بعد ذلك بالكتابة ٠

ونظرت الى المرأة وهزت راسها هزات خفيفة وقالت :

- لست أنا ، وليست قصتى ٠٠ على أى حال ٠٠ لتسمعها فإن كانت سخيفة ، فما يضيرك أن تزيد السخافات التى سمعتها سخافة !
وبدأت المرأة تقص قصتها فكان أول ما قالته :

- بدأت حياتى خادمة ٠

ثم نظرت الى فلم تر منى بادرة دهشة . فسالتنى فى شيء من الاستنكار :

- لم لا تدهش ؟

- ولم الدهش ٠٠ وأغلبكن قد بدأ حياته كذلك ٠٠ ولست أرى فى ذلك ما يستدعى الخجل قط ٠٠ على العكس ٠٠ اننى أرى فيه ما يستدعى الفخر لأن الانسان فى هذه الحياة أربعة أنواع : واحد يبدأ حياته شيئا فينتهى الى لا شيء ، وواحد يبدأ حياته شيئا فيستمر شيئا ، وثالث يبدأها لا شيء ولا يزيد فى النهاية عن لا شيء ، والأخير يبدوها وهو لا شيء فيصير فى النهاية شيئا كثيرا ٠٠ فلو وازنا بين الأربعة الأنواع لوجدنا شرها الأول وخيرها الأخير ، أما الثانى والثالث فكلهما انسان لم يستطع أن يضيف الى نفسه أكثر مما وجدها عليه ، فهو انسان عادى ٠٠ وأنت يا سيدتى وغيرك ممن بدأن حياتهن خادعات أو ما شابه ذلك ٠٠ ثم صرن الى مثل ما صرت عليه ٠ من النوع الرابع ٠٠ أى من خير أنواع الانسان ٠٠ ولو كنت خادمة ٠

ورأيت المرأة قد استغرقت فى الضحك ثم رفعت الى بصرها
قائلة :

— على أية حال أنا لم أخجل قط من أن أقول انى كنت خادمة ..
غير انى لست أرى ما تراه من أن أعلن فى كل فرصة انى كذلك ..
لأن الناس ليسوا كلهم عقلاء مثلنا ، أو على الأصح ، ليسوا كلهم
مجانين مثلنا •

— أتى قصتك .. لقد قلت انك بدأت حياتك خادمة •

— أجل ! خادمة فى منزل بحى السيدة زينب .. وكم عدوت
بقدمى العاريتين أقطع حارة السيدة ذهابا وإيابا حاملة زجاجة
الزيت ، أو طبق الفول ، أو سلة الخضار .. انى لأتخيل أحيانا
لو كانوا يضعون للإنسان عدادا كما يضعون للعربات اذا لسجل
العداد الذى ركب فى جسدى الصغير وقتئذ آلاف الأميال من مجموع
تلك المسافات التى كنت أقطعها بين الباعة فى شارع السد البرانى
وبين الدار فى جنيّة لآظ •

ولم أكن أحس بالكثير من السعادة وقتئذ .. رغم أن أهل الدار
لم يكونوا قساة غلاظ الأكباد ، فقد كان رب البيت رجلا كثير المرح ،
طيب القلب .. ولم تكن صلتى به لتزيد عن تحضير الجزمة والشراب
واللبيسة ، وكانت تلك أسهل الواجبات الملقاة على عاتقى .. ولم
تكن ربة البيت أيضا بالمرأة الشريرة .. ولكن كان أسوأ ما بها أنها
كانت تستشيط غضبا عندما يطول بى الغياب فى السوق ، وكنت أنا
لا يسعدنى فى ذلك الوقت قدر التلكؤ واللعب فى الطريق ، وكان لى
العثر كل العذر فى ذلك ، فقد كنت لم أعد بعد دور الطفولة • وكانت
تلك هى الفرصة الوحيدة التى أطلق لنفسى فيها عنان اللهو واللعب ..
ولكن المرأة لم تكن ترحمنى وقتئذ من علقه ساخنة عقب كل غياب •
وشئ آخر كان يغيظنى فى المرأة هو شدة حبها للنظافة .. فكنتا

لا نكاد نكف لحظة عن الكنس والمسح والتنفيض ، ولكننى اعترف
انها كانت تقوم وحدها بمعظم العبء ٠٠ فقد كانت حمارة شغل ٠
وكان يوجد فى الدار غير الرجل والمرأة ابناهما الصبيان اللذان
يقاربانى فى السن ، وهذان لم اكن الملقى اليهما كثير اهتمام ٠٠ رغم
ما كان يصيبني من أحدهما من الشلاليت ٠٠ عندما أنسى أن أمسح
أحذيتيها ثم أدعى انى قد مسحتها ٠

اقول رغم ما كان يصيبني من أحدهما ٠٠ لأن الآخر وهو الأصغر
كان الوحيد فى الدار الذى لم يصيبني منه اذى مذ دخلت الدار ٠
لقد كان الصبى طيب القلب ، رقيق النفس ، فكنت كثيرة
الاطمئنان اليه ٠٠ لا أحس له هية السادة ٠٠ بل كنت أشعر دائما
عندما أحدثه أو أقضى له حاجة أنه اما أن يكون هو خادما مثلى ،
أو أكون أنا من أهل الدار مثله ٠

وكان أكثر ما يحبني فيه وقتئذ أنه كان كثيرا ما يجود على
بجزء غير يسير من نصيبه من الطعام « المخصوص » ، وأقصد
بالطعام المخصوص - تلك الأنواع التى لا يتذوقها الا السادة فقط -
والتي لا يكون للخدم نصيب منها الا الرؤية والرائحة - أو مع أحسن
الفروض - بقايا أو فتات لا تشبع من جوع ولا تغنى من نهم ، وأذكر
منها على سبيل المثال وقتئذ : المنجة ، والجبنة الرومى ، وعيش
السراية بالقشدة ، وغيرها من الأصناف التى كنت أتحرق شوقا
اليها ٠

ومرت الأيام وبنفسى من السخط ما بنفس كل صبية فى مثل سنى
تعمل خادمة ٠٠ ولكننى لم اكن أستطيع سوى البقاء لأنى كنت
لا أعرف أين أذهب حتى أحسست فى ذات مرة أن هذا السخط يزول
من نفسى ٠٠ وأن شعورا آخر قد حل محله ٠٠ ليس فقط بالرضا ٠٠
بل بالسعادة والغبطة :

ولم أكن أدري وقتئذ سر ذلك الانقلاب الذى أصابنى والذى حجب
الى الدار وأهل الدار ٠٠ ولم أحاول أن أناقش نفسى فى سبب
شعورها بالسعادة والغبطة ، بل اكتفيت بأن أتركها تنغمر فى ذلك
الشعور الذى لا تدرك كنهه .

وأذكر أنى كنت فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ٠٠ أى فى تلك
السن التى يبدأ فيها النضج ٠٠ والتى تحاول المرأة فيها أن تطل من
جسد الصبية ٠٠ وأذكر أيضا أن محور اهتمامى قد أضى ذلك
الصبى الأصغر ٠٠ وأنى كنت أركز جهودى فى محاولة إرضائه وفى
خدمته ٠٠ وقد يكون فى ذلك عرفان للجميل فقد كان الصبى ما زال
على بره بى وحده على ، وكان كثيرا ما يتغاضب مع أخيه أو مع
أمه بسبب محاولتهم إيدائى لسبب أو لغير سبب .

أقول لك انه قد يكون فى اهتمامى بالصبى عرفان للجميل . ولكن
الواقع انه لم يكن كذلك ولكنه كان حبا !

لا تدهش يا سيدى ، ولا تتهمنى بالحمق اذا ما حاولت . وأنا
خادمة ، أن أحب سيديا لى لأن الحب لا خيرة فيه ٠٠ بل هو من
الأشياء التى يضطر اليها الانسان اضطرارا ، وان المرء ليصاب به
كما يصاب بمرض من الأمراض . فان حق لنا أن نتهم مريضا
بالتيفود بالحمق لأنه لم يصب بمرض أخف وطأة ٠٠ انفلونزا مثلا
٠٠ أو زكام ، لحق لك أن تتهمنى بالحمق لأننى أحببت سيديا ٠٠ ولم
أحب خادما مثلى .

لقد كان لا يمكن لى الا ان أحبه ٠٠ لأن الصبى كان لا بد أن
يحب ٠٠ لقد أحبه كل من حوله ٠٠ أمه وأبوه وأخوه وأصدقائه
وأقرباؤه ٠٠ وكل بنات العائلة اللاتى لهن به صلة . دعى أصفه
لك ، كما كنت أراه فى ذلك الحين ٠٠ فى تحوله وصفاء عينيه ،
ونقاء بشرته ، وشعره الذهبى ، وأسنانه البيضاء الناصعة التى لم

يكن أسهل على الانسان من رؤيتها ، فقد كان دائم الضحك ، كثير
المرح ، حلو الفكاهة .

وطويت حبي في صدري ، راضية بهذا العطف الذي كان يشاركني
فيه كل من حوله ممن يستحقون منه العطف كالشحاذين والكلاب
المضالة والقطط الجائعة .. حتى كان يوم دفعني فيه شيطان الحب
الى أن أتطلع الى أكثر من الشفقة والعطف .

كان ذلك يوم خميس . وقد حضر الصبى من المدرسة ، فطلب من
أمة نقودا لأنه سيذهب غدا في رحلة مع أصدقائه .. ولكن أمة أنباته
أنه لا داعي لتلك الرحلة لأن بعض الأقرباء سيتناولون الغداء معهم
في الغد . كما أنه لا يوجد معها نقود .. وبدت خيبة الأمل تظهر على
وجهه .. وأخبر أمة أنه قد اتفق مع اخوانه فلا يمكنه النكوص ،
وأنه كان يتلطف على الذهاب الى تلك الرحلة منذ زمن طويل .

ولكن المرأة أصرت على ألا يذهب . وألح الصبى فزادت المرأة
أصرارا .. وأخيرا غادرها الى حجرته وسمعت صوت بكائه ، وكنت
أول من سمعه يبكي . ولا أدري ما الذي جعلني لا أتمالك نفسي فأبكي
أنا الأخرى .. لقد تمنيت لو استطعت أن ادخل عليه فأحتضنه
وأكفكف دمعته وأعطيه ما يشاء من النقود .. ولكنها كانت أمنية
عسيرة التنفيذ .

وبعد برهة حضر الأب من عمله وعلم من الأم بما حدث فسمعت
يؤاخذها على ذلك العناد الذي لا مبرر له .. ورأيت يدخل على
الصبى ويعطيه ما يريد من النقود .

ورأيت الصبى بعد ذلك ضاحكا متهلل الوجه ، وأقبل على
يحدثني عن الرحلة التي سيذهب اليها في الغد وطلب مني أن أجهز
له بعض ما يلزمه .

واقبل العصر خرجت من الدار لأبتاع بعض الحاجيات وانطلقت

أعدو فى حارة السيدة ، حتى وصلت الى عم عبد المعطى البقال
فى اول شارع السد وطلبت منه ما أريد . ثم مدت يدي فى جيب
الجلباب .. فلم أجد النقود .

وحررت فى أمرى .. وتملكنى خوف شديد . لقد سقطت منى فى
الطريق .. ترى كيف أستطيع العودة الى البيت ؟ وترى ماذا
يصيننى من سيدتى عندما تعلم أنى قد أضعت النقود ؟ !

وعدت أدرأجى فى الطريق مطاطئة الرأس دامعة العينين أبحث
بعينى فى جوانب الطريق لعلى أجد النقود هنا او هناك . ولكن متى
كان الانسان يجد شيئا يبحث عنه ؟ وعلى الأخص اذا كان نقودا ..

وأخيرا جلست أنتحب على الرصيف .. ويخيل لى أن غيبتى قد
طالت . فقد رأيت الصبى يقبل على باحثا عنى ، وعندما وجدنى
أبكى ظهرت عليه الدهشة وسألنى عما بى .. فأنبأته أن النقود قد
فقدت .. ولاح الحزن على قسماته برهة .. وسألنى كم كانت النقود
.. فأخبرته بها .. ورأيته يفكر قليلا ، ثم انبسطت أساريره عرة
واحدة وجذبني من يدي قائلاً : هيا الى البقال .

ولم يعطنى فرصة للتفكير حتى أعرف ماذا ينوى أن يفعل بل
أخذ يعدو وأنا أعدو خلفه حتى وصلنا وابتعنا الأشياء المطلوبة .
ومد يده فى جيبه فأخرج النقود وأعطاهما للرجل .

وأدركت عندئذ أن النقود لا بد أن تكون نقود الرحلة التى كان
يحلم بها والتى بكى لأن أمه رغبته فى حرمانه منها .. وأحسست
الحزن يعصف بى .. فقد كنت أنا التى سأحرمه هذه المرة ..

ونظرت اليه وقلت له : انى سأنبئهم بالحقيقة . حتى يردوا اليك
نقودك ... ولكنه نظر الى فى غضب وقال لى : اياك أن تقولى
شيئا .. سأعرف كيف أتدبر الأمر .

وعندما عدنا قال لأمه التي كانت تستشيط غضبا ٠٠ الازدحام
كان شديدا عند البقال وانها لا ذنب لها في هذا التأخير ٠
وفي تلك الليلة لم أذق النوم الا لما ٠٠ فقد كنت افكر ماذا
سيفعل الصبي في الغد وليس معه نقود ٠٠ وفي الهنيهات التي نمت
فيها كنت احلم اني قد عثرت على كنز ، وانى اخذت احمل منه النقود
الى الصبي لكي يذهب الى رحلته ٠

وفي الصباح خرج الصبي مبكرا بعد أن جهزنا له طعامه في
حقيبته الجلدية وملأنا له الترموس بالمياه المثلجة ٠

وقبيل الغروب عاد وعليه غبار الرحلة ٠٠ وأخذ يصف لنا في
صوت ملء بالابتهاج ما رآه وما صادفه ، وكنت أعجب في نفسي
كيف حصل الصبي على النقود ٠٠ ولكنى علمت منه بعد ذلك انه
قضى طيلة يومه جالسا عند « عم امام الحلواني » وأن الغبار الذي
كان عليه من غبار الحارة وأن المعلومات التي اثنانا بها لم تزد على
ما قرأه في كتاب « القراءة الرشيدة » ٠

هذه هي الحادثة التي جعلت شيطان الحب يسلبني نعمة القناعة
بالشفقة والرضا بالعطف ، فأحاول أن أطمع منه في حب كذلك الحب
الذي يجيش به صدري ٠٠ وإذا أنا أحس صراعا في نفسي ٠٠ فقد
كانت المرأة التي تكمن في تحاول أن تبرز الى الوجود ٠

ومرت الأيام بعد ذلك وكل منا يسير في طريق النضج ، أنا الى
فتاة ٠٠ وهو الى فتى ٠٠ ووجدتني أوجه عناية كبرى الى زينتى -
ان كان يمكن أن يكون هناك زينة لخدمة - واستطعت أن أحصل على
مرأة صغيرة وضعتها في صندوق ملابسى ٠ وكنت أحتفظ بمشابك
الشعر التي اعثر عليها ملقاة من شعر سيدتى على الارض ، وكنت
أحاول جهدى ألا أبدو أمامه الا وأنا راضية عن منظرى ٠٠ والواقع
اننى لم أكن قبiche بحيث أياس من الحصول على حبه أو اعجابه ٠٠

على النقيض لقد كان الكثيرون يقولون عنى اننى جميلة ٠٠ وكانت كلمات الغزل تلقى على من كل جانب ، اذا ما سرت فى الطريق . من الخدم والبوابين والباعة ، بل من الأفندية و البهوات فى كثير من الأحيان ٠٠ ولم اذهب بعيدا وأخوه نفسه - وقد لا أكون كاذبة ، اذا قلت وأبوه أيضا - قد بدأ يوجهان الى نظرات الافتتان من طرف خفى ، وفى غفلة من الأم ؟

ولكنه هو ٠٠ هو وحده ٠٠ الذى كنت أتلهف عليه ٠٠ وأتمنى ان يحس انى قد أصبحت امرأة ٠٠ لم يكن ينظر الى أكثر من نظرتة القديمة ، ولم يرئى أكثر من خادمة مسكينة تستحق العطف .

وفى ذات يوم خرج أهل الدار جميعا وبقيت فى البيت وحيدة ، وزين لى الشيطان أن أرى نفسى عندما أبدو كسيدة فقد وددت أن أرى هل أكون ذات وقع فى نفسه اذا أتاحت لى الظروف ان أكون سيدة ؟ وهل أنا اقل جمالا من أولئك السيدات اللاتى أبصرهن ؟

ودخلت حجرة السيدة وأخرجت ادوات الزينة وبدأت أزين وجهى وأمشط شعرى ، فلما انتهيت نظرت الى المراة فوجدتنى رائعة ، ولم تكن ملابس السيدة تناسبنى ، ولكنى مع ذلك أخذت أجربها ثوبا ثوبا ، لأرى كيف أبدو فيها .

وأخيرا انتهيت من تجربتها جميعا ٠٠ ووقفت أمام المراة وأخذت أجرد نفسى من الثياب قطعة قطعة ٠٠ لقد رغبت فى أن أراى كيف أبدو عارية .

يا لله ٠٠ انى ما ظننت قط أنى رائعة كما بدوت ٠٠ هذا الصدر الممتلئ المستدير يبدو جامدا كأنه قد صنع من حجر ، وهذا الجسد المستوى بلا ثنيات ولا زوائد . وهذا الخصر الرقيق ، وهاتان الساقان الممتلئتان ٠٠ لقد أحسست الثقة تملأ نفسى ، والسعادة

يفيض بها قلبى .. أجل .. لقد اطمأنتت الى انى ساستطيع الحصول
على حبه .

وقى نفس المساء وجدته يجلس وحيدا فى حجرة المكتب وكل من
فى الدار رقود ، واحسست بلهفة شديدة عليه ، وتمنيت أن اهب
نفسى له .. وكانت الفرصة سانحة .. ولم أكن أخشى أحدا .. الا
هو .. فقد خشيت الا أفلح فى اغرائه .. ولكنى تذكرت صورتي
وانا امام المراة فعادت الى الثقة .. ودخلت الى الحجرة .. ورفع
الى عينيهِ وسألنى عما أريد .. واضطربت بعض الشيء ولكنى
اقتربت منه .. وشعرت بالرغبة تعصف بى .. فلم أدرك الا وقد
احتضنته بين ذراعى ووضعت فمى على فمه .

ولا شك أن الفتى قد اعترته دهشة شديدة .. فقد سادت لحظة
صمت .. ثم رأيته يدفعنى بعيدا عنه . ويرفع يده فيهبى بها على
فى صفة لم أذق مثلها فى حياتى قط .

ولم أحس يوما ما بألم الخذلان ولا مرارة الهزيمة كما أحسست
بهما فى تلك الليلة .. لقد انسحبت من الغرفة فى ببطء وعدت الى
فراشى فى المطبخ وارتيمت عليه . وقد أخذتنى الرجفة كأننى فى
النزع الأخير .

لقد كرهت نفسى .. لأننى لا أستطيع أن أكرمه .. وقلت لنفسى
اننى المخطئة ، لأننى كنت واثقة أنه لا يخطئ .. لقد كنت مغرورة
ونلت جزاء غرورى .

ولكن لم لا يكون كغيره من الناس ؟ لم يابى الا أن يرانى
كخادمة ؟ لم لا ينزل مرة عن هذه المثالية التى هو فيها .. ؟ ترى
لو كنت قد ذهبت الى أخيه أو أبيه ، أو الى أى مخلوق سواه ، أكان
يمر بى سكون الليل كما مر معه ؟ أترى نصيبى منهم كنصيبى منه

صفعة وإزدراء ؟ ! أقسم أنى لو فعلت لكنت الآن مستلقية فى فراشهم •

ولكنى مع ذلك أحبه •• هو •• وأريده أكثر مما أريد أى شىء فى هذه الحياة •

وطال بى التفكير فى هذه الليلة وصممت فى النهاية على أن أترك الدار •• لأنى أريد حبه •• ولن أحصل عليه ما دمت خادمة •• فخير لى أن أخوض غمار الحياة ، ومن يدري ؟ ربما ساعدتنى الظروف فصرت فيها شيئاً •• واستطعت أن أنتزع منه الحب والاعجاب ، وحتى لو لم أصر شيئاً •• فذلك خير لى من البقاء هنا كالمهاجر الصادى بجوار غدير حرم عليه مسه ، وأغلب ظنى أنه حتى الشفقة التى لم أكن بها قانعة ، ستبديل احتقاراً وإزدراء •

وقبيل الفجر هربت من البيت وبنفسى لوعة وبقلبى حرقة • ولا أظن هناك داعياً لأن أذكر لك تفاصيل تلك الفترة من الزمن التى مرت بى بعد ذلك ، ولكنى أؤكد لك أنى لم أستطع أن أصل الى أول درجة من سلم المجد والشهرة الا بعد أن أدمى حصى الطريق قدمى ••• ومزقت أشواكه جسدى • وأؤكد لك أن عينى لم تبصرا النور الا بعد أن طالت بهما الحلقة ، وأننى قد رايت فى هذه الفترة المظلمة أسوأ ما يمكن أن تراه امرأة فى الحياة الدنيا •

ومع ذلك فلم أنقطع فى تلك الفترة عن رؤيته قط •• ولكن دون أن يرانى أو يحس بى •• فقد كنت أعرف مواعيده وأعرف حركاته وسكناته ، وكان فى رؤيتى له غذاء لروحى الجائعة ونفسى الشريفة الظماى •

وفى ذات ليلة - بعد أن أخذ نجمى يبيزغ ويرتفع - كنت فى إحدى الحفلات وقد بدأت الغناء •• فإذا أنا الملح وجهه بين الحاضرين ، وأصابنى اضطراب : فقد كنت أتمنى منذ بدأت أعتلى

قمة الشهرة ٠٠ أن يرانى فى حياتى الجديدة ٠٠ وأن يحس أنى
أستحق منه أكثر من الشفقة أو الاحتقار ٠٠ وتمالكت نفسى وبدأ
الاضطراب يزول شيئاً شيئاً ، وأخذت أقنى نفسى فى الغناء فقد كنت
أحس أنى أغنى له ٠٠ له وحده .

وانى لأذكر أن هذه الحفلة هى التى دفعتنى الى قمة المجد
وأذكر كيف انهمال على المهنئون . ولكنى لم أحس بلذة النجاح
والانتصار . الا عندما وجدته يقبل على ويشد على يدى مهناً .
ان من العيب أن أحاول وصف سعادتى فى تلك اللحظة ، فمثل
هذه المشاعر لم تخلق لها الالفاظ التى تستطيع أن تعبر عنها .

لقد تسللت به من وسط الازدحام ودعوته الى مرافقتى الى بيتى
٠٠ وعندما وصلنا الى البيت سألته أن يصعد معى وأخيراً احتوتنا
غرفة واحدة ٠٠ تختلف كثيراً عن الحجرة التى جمعتنا فى المرة
الأولى ٠٠ بذلك العطر الذى يتضوع منها وذلك الجو السحرى الذى
يملؤها ٠٠ وأنا ٠٠ أجل ٠٠ أنا ٠٠ لم أعد بعد خادمة تسللت من
المطبخ بثيابها التى تفوح منها رائحة الجاز والبصل ٠٠ بل امرأة
يسعد كثيرون من الناس بأن تشير لهم بتحية من يدها ٠٠ امرأة ذات
شوب أنيق يبرز من جسدها أكثر ما يخفى ٠٠ ويفوح منها شذى عطر ،
لو نطق لقال : « ضعنى بين ذراعيك » .

وكنت أكثر حنكة فلم أحاول أن أتسرع فأضمه الى كما فعلت فى
المرة الأولى ٠٠ بل جلست أمامه وأخذت أغنى له بصوت خافت ٠٠
ثم نهضت بعد ذلك لأبدل ثيابى . ووقفت أمامه بالثياب الداخلية ،
فرايته يقترب منى ٠٠ ومد ذراعيه فاحتوانى بينهما .

يا للأمل الذى تحقق ٠٠ لقد أحسست بأنفاسه أخيراً تلهب
أنفاسى ، وبشفتيه تضغطان على شفتى ٠٠ وانتظرت أن يحملنى الى

الفراش ٠٠ ولكنى رأيته ينظر الى الساعة فى يده ثم يدفعنى عنه
برفق وهو يقول :

- لقد تأخرت !

ونظرت اليه فى دهشة شديدة وحنق ٠٠ ولكنه هز رأسه ببطء
وقال :

- انى متزوج ٠٠٠

« متزوج » ؟ ! ٠٠ أهكذا بعد طول الانتظار أجده قد أفلت من
يدى ٠٠ ولكن ماذا فى أن يكون متزوجا ٠٠ وماذا يضير زوجته التى
تتمتع به ليل نهار ٠٠ أن أتمتع به ساعة أو ساعتين وأنا التى أدميت
قدمى حتى وصلت الى تلك اللحظة ؟ !

ووجدت من العيب أن أستبقيه ٠٠ فقد رأيت فى عينيه نظرة العزم
والإصرار التى رأيتها فى المرة الأولى ٠٠ وأدار لى ظهره تاركا اياى
غريقة فى ألم الخذلان ومرارة الخسارة تماما كما تركنى أول مرة ،
لا ينقصنى الا الصفعة ، وحتى هذه لم يبخل على بها ٠٠ فقد رأيته
يدير وجهه الى كمن تذكر شيئا ٠٠ ثم مد يده فى جيبه وأخرج بضغ
أوراق مالية تركها على المنضدة .

وغادر الحجرة وتركنى ٠٠ كما كنت ٠٠ خادمة ذليلة .

يا للرجل ٠٠ انه يأبى الا أن يكون مثاليا . كما كان فى طفولته ٠٠
كم أود أن أكرهه ٠٠ ولكننى لا أستطيع ٠٠ لقد أمسكت بالنقود
وحفظتها عندي لأنها شيء يذكرنى به .

ومرت الأيام والأشهر والسنون ٠٠ ولم أكن ألقاه الا لقاء عابرا ،
ولكنى كنت فى كل مرة ألقاه فيها أحس أننى لم أزل أحبه وأننى
لا يمكن أن أكف عن حبه حتى أموت .

وأخيرا ماتت امرأته ، والتقيت به بعد ذلك ٠٠ ورأيت بارقة أمل
قد سنحت لى ، فسألته أن يتزوجنى ٠٠ أجل ! أنا التى سألته ٠٠

ورأيت قد بهت فى أول الأمر ٠٠ تماما كما بهت حين دخلت عليه
 الحجرة وأنا خادمة واحتضنته وقبلته ٠٠ ولكنه فى هذه المرة ٠٠
 كان أكثر رفقاً ٠٠ وألين جانباً ٠٠ ولم يكن نصيبى منه صفقة ٠٠
 أو على الأصح كانت الصفعة منه غير مقصودة ٠٠ أو ٠٠ من يدري ؟
 لقد قبل الزواج بى ٠٠ ولكن الزواج لم يكد يتم ، ولم أكد أحس
 انى قد حصلت عليه بعد طول انتظار ٠٠ حتى أصابه مرض أخذ
 يشتد به ويتفاقم ٠٠ وبعد بضعة أيام ٠٠ هوى على بالصفعة الثالثة
 - أو قل بالطعنة الثالثة - وغادر الحياة ، وتركنى فى هذه المرة ٠٠
 لا خادمة ذليلة - بل نفساً بالية ، وروحاً ذاوية ، وامرأة مخذولة
 خاسرة .



وصممت المرأة بعد ذلك . فلم تنبس ببنت شفة ، ونظرت الى
 وجهها فرايت الحزن قد تجسم فى قسَماته ٠٠ فأدبرت وجهى الى
 الناحية الأخرى وتركت دمعين تنسابان من عيني ٠٠ وكان هذا هو
 ما علقت به على القصة عندما سمعتها من المرأة ، أو ٠٠ عندما
 أبصرتها من الزاوية الأخرى .

امراة نائمة

هذه قصة امرأة ٠٠ قد أظلمها كثيرا لو رميتها بالجنون ، رغم أن صاحبتى التى ذهبت بى لزيارتها ٠٠ قد أنذرتنى سلفا بأنها امرأة مجنونة ٠٠ وإن كان جنونها لا يزيد على أنها تعتقد أنها نائمة ، وأن كل ما تفعله وتراد ، لا يعدو أن يكون حلما .

وأقول الحق اننى كنت أشعر ، وأنا فى طريقى لزيارة المرأة ٠٠ انى سأجد شيئا يبعث على التسلية . بل كنت أعتقد انى لن أعدم وسيلة أعيدها بها الى وعيها وأثبت لها أنها فى يقظة تامة وأنها ليست نائمة .

ومع ذلك ، فقد لقيت المرأة وسمعت حديثها ٠٠ وأقسم أنه ما من امرئ استطاع أن يستدرف من عيني الدمع كما استدرفته هذه المرأة ٠٠ حتى لقد انتهى بى الأمر الى أن أجزم لها أنها ما زالت نائمة ٠٠ وأن كل ما تراد ليس الا حلما .

أجل لقد كان ذلك خير عزاء لها ٠٠ ولم لا !! ليست الحياة كلها أحلاما وأوهاما ٠٠ فعلام اليقظة اذا ٠٠ ؟ !

هذه هى قصة المرأة كما قصتها على .. وكما استطاعت ذاكرتى
أن تعيها .

★ ★ ★

كان ذلك فى يوم من أيام الصيف القائل ، التى يستيقظ الانسان
فيها فيجد الشمس قد ملأت جوانب الحجرة . حتى ليخيل اليه أن
اليوم قد بدأ ظهرا . وأن الشمس قد أشرقت فجأة من كبد السماء .
فلا يحس المرء بذلك الصباح الرطب الندى ، بل يشتم من الجو حرارة
خائفة تنذر بيوم من أيام الجحيم .

بدأ النزاع بيننا ونحن على مائدة الافطار ، ولقد كنت حمقاء
وقتئذ عندما مهدت السبيل للشيطان الشر أن يهبط بيننا ، اذ كنت
أعلم قبل أن أبدا الحديث أن ذلك الموضوع الذى ساطرقه سيؤدى بنا
حتما الى الشجار .. ومع ذلك فقد طرقت .. فقد كنت متعبة
الأعصاب ، منهوكة القوى ، عقب ذلك الأرق الذى أصابنى فى الليلة
السابقة من فرط حرارة الجو ، وكنت أحس بضيق فى نفسى من ذلك
الركود المميت الذى شمل كل ما حولى .

وكان موضع الشجار هو اصرارى على أن نساغر الى الاسكندرية
.. واصراره على أنه لم يحن الوقت بعد للسفر ، فما زال لديه الكثير
من الأعمال التى تستوجب بقاءه فى القاهرة . وكنت أعلم أنه على
حق فى قوله ، ولكننى اتهمته بأنه يأبى الا مضايقتى ، وأنه يستطيع
أن ينجز هذه الأعمال بالحضور الى القاهرة يوما أو يومين
فى الأسبوع .

وكان هادئا فى مناقشته معى كل الهدوم .. ولكننى اعترف انى
قد استشرته حتى انتهى به الأمر الى أن يترك المائدة قبل أن يتم
طعامه .

ورأيتة يتلکأ برمة قبل أن يغادر الدار .. لعلى أعدل عن غضبى

فأسترضيه بكلمات طيبة ، ولكنى لم أفعل ٠٠ وأخيرا سمعت الباب يغلق ، وسمعت وقع قدميه تهبطان الدرج ٠٠ فشملى السكون ٠٠ وأحسست بأن الدموع توشك أن تفر من مقلتى ، ولكنى جاهدت فى حبسها ، وتعالكت نفسى ، فقد كنت عازمة على ألا أدع الندم يتطرق الى . وأن أصر على أنى لم أكن مخطئة فى خلق ذلك الشجار الذى لم يكن له أى مبرر ولا داع ٠

وتركت المائدة ٠٠ وكان على أن أبدا القيام بتلك الأعمال التى اعتدت القيام بها بمساعدة الخدم فى كل يوم ٠٠ من نظافة الدار الى إعداد الغداء ، ولكنى كنت أحس بضيق وتبرم ، وأشعر بتعب يدفعنى الى الرقاد فى كسل واسترخاء ٠٠ قدلفت الى حجرة النوم واضطجعت على احدى الأرائك ، وقد أمسكت باحدى المجلات ألقبها بين يدى ، ولكنى قذفت بها بعد لحظات . ورفعت رأسى فأبصرت بصورتى فى المرآة وبدأت أتأملها ، ثم حانت منى التفاتة الى تلك الصورة المعلقة على الحائط والتى تمثلنى بجوار زوجى فى ثوب الزفاف . وقد أشرق وجهى بابتسامة مضيئة ٠٠ وشع من عينى بريق الأمل والهناء ٠ وتنقل بصرى بين الصورتين : صورة الحائط . وصورة المرآة ٠٠ أو صورة الماضى ، وصورة الحاضر

يا للسنوات السبع الطوال ، لقد أطفأت بريق الأمل . ومحت ذلك الاشراق الذى كان يضئ جوانح النفس وجعلت مكانه السخف والتبرم ، فبدا الوجه فى كآبة وظلمة ٠

ترى ما مبعث ذلك الشيء الخفى الذى يثير فى نفسى القلق وعدم الرضاء ؟ وما علة ذلك الشيء الذى يدفعنى دائما الى اثارة الشجار ، حتى لقد أضحت حياتى لا تكاد تخلو لحظة من شقاق وجدال ؟ !
ان العلة لا شك كامنة فى نفسى ، والداء مستوطن فى قلبى ٠
وسبحت ببصرى من النافذة وشرذ ذهنى بعيدا ينقب فى زوايا

الماضى حتى استقر به المقام فى بقعة بعيدة نائية ٠٠ ما زالت تبدو
للعين نضرة مزدهرة ٠٠ فما استطاعت كف القدم أن تدبّل ورودها
أو تمحو شذاها ٠٠ فهي هي ٠٠ فى اشراقها ولائها ، رغم تلك
الظلمات التى تراكمت حولها من مر الزمن وكر السنين ٠

كان ذلك منذ تسع سنين خلت ٠٠ وكنت وقتذاك طالبة فى الجامعة
٠٠ وكنت تحيط نفسى بجزء من بنشوة الأحلام ٠ الأحلام الذهبية
البراقة التى تجيد فتاة فى الثامنة عشرة نسجها حول نفسها ٠٠
عندما يتفتح قلبها للحب ٠٠ فلا تكاد تغرس فيه بذور الهوى حتى
تراها قد أورقت وأينعت ٠٠ وأضحت فى غمضة عين روضة دانية
القطوف وارفة الظلال ٠

وكان هواى فى بادئ الأمر هوى من جانب واحد ٠٠ وكنت
أكتفى من الحبيب بالنظر اليه وسماع حديثه ٠٠ وكنت أجد فى ذلك
كفايتى ولا أطمع فى شيء سوى ذلك ٠٠ إذ لم يكن يخطر لى أنتى
ساستطيع أن أثير اهتمامه من بين ذلك الجمع من الفتيات اللاتى
كنت أجلس بينهن ٠٠ فقد كنا جميعا لديه سواء ، ولم يكن بى
ما يميزنى عنهن مما يجعلنى أطمع فى أن أكون محط أنظاره ٠٠
وحتى لو كنت ممتازة بأى شيء فقد كنت على يقين من أنه لن يكون له
صدى فى نفسه . إذ كان قليل الاهتمام بنا ٠٠ وكان يبدو لنا دائما
أنه فى عجلة من أمره ، فلا يكاد يلقى محاضرتة حتى يفر هاربا دون
أن يعطينا فرصة لمناقشته أو محادثته ٠

ومما كان يزيد فى اعتقادى أنى لن أجد لذلك الحب صدق فى
نفسه ، أنى لم أكن عاشقته الوحيدة ٠٠ فان كل الفتيات كن عاشقات
له ٠٠ والواقع أنه كان من الخطأ أن يجعل مثله مدرسا لفتيات ٠٠
فقد كن لا يملكن الا أن يقعن فى حبه ٠٠ ومع ذلك ، وبالرغم من كل
ما سبق ذكره ٠٠ وبالرغم من قناعتى من الحب بأوهامه وأحلامه .

فقد بدأت بالفعل أثير اهتمامه ، ولا أدري كيف تطور الأمر ، ولكنى
أذكر أنه قد بدأ بأن عدوت وراءه ذات مرة فاستوقفته لأسأله سؤالاً
تافهاً . فنظر الى بحق وهز رأسه ، ثم سار فى طريقه . ومنذ ذلك
اليوم أضحى يخصصنى بشرحه ويكثر من التحدث الى ، اعتقاداً منه
أننى على جانب كبير من الغباء ، وكنت أنا أمعن فى ذلك لأسترعى
اهتمامه ، وهكذا ظللت أستدرجه حتى وقع فى الشرك .
أجل ، لقد انقلب اهتمامه بالشرح لى الى الاهتمام بشخصى ،
وبدأت أدرك جلياً من نظرات عينيه أنى قد أصبحت عنده « ذات
موضوع » .

وتطورت العلاقات بيننا ، وأصبحنا أكثر من مدرس وتلميذته .
حتى كان ذات يوم سألنى الزواج منه . فلم أصدق أذننى لفرط
مفاجأتى بسؤاله .

وتمت الخطبة . وأنا أحس أن العالم كله قد أضحى بين يدى .
وحدث بيننا ذات يوم بعض المشاحنات التافهة التى كثيراً ما تحدث
بين الخطيبين . ولا أدري كيف تملكنى إذ ذاك شيطان الحق .
فقدذفت اليه بخاتم الخطوبة .

وقد يكون عذرى فى ذلك العمل الأحق . أنى لم أكن « جادة
فيه قط » . وأنى كنت على يقين من أنه سيعيده الى بعد يوم أو يومين
.. ولكنى أدركت بعد ذلك أنى كنت خرقاء . وأن الظروف كانت
أكثر خرقاً وجنوناً ، فقد اضطر للسفر الى الخارج بعد يومين .
وكان سفره فجأة وعلى عجل . ومنعت كلا منا كبرياؤه من أن
يخطر الى الآخر . فسافر دون أن أودعه .

ولم تكن غيبته طويلة فقد عاد بعد بضعة أشهر ، ولكنه عندما
عاد لم يكن وحيداً ، بل كانت معه امرأة . أجل . كانت معه
زوجته !

وليس من السهل . أن يتصور المرء وقع الصدمة التي أصابتنى وقتذاك . . . فلقد كنت أشبه بصرح شامخ على الذرى رفيع البنيان . . . أصابه صيدع من أساسه . . . فإذا هو قد دك فى الأرض دكا . . . ومرت الأيام . . . وبدأت أعاود السير فى الحياة متحاملة على نفسى . . . وتقدم عند ذاك لخطبتى قريب لى كان قد شاهد القصة من أولها . . . وكنت أشعر أنه يكن لى الكثير من الحب وان كنت لا أحمل له سوى صداقة خالصة .

وفكرت كثيرا قبل أن أقبل زواجه . . . وانتهى بى التفكير الى قبوله . . . وأرتنى الأيام انى لم أخطيء بزواجه قط . . . فقد استطاع برفقه وحنانه أن يضمد جراح قلبى ، وأن ينسينى حبى الأول . . . ومرت السنون الاولى من زواجنا وأنا أحس بالهناء تملأ جوانحى . . . لقد كنا مثالا لزوجين سعيدين .

ترى ماذا حل بى بعد ذلك فأفسد حياتى ، وملأنى بالملل والضيق؟! لا أظننى أستطيع الاجابة عن ذلك بالضبط . . . ولكن الذى أنكره جيدا هو أن الملل الذى أصابنى ، والشقاق الذى تخلل حياتنا ، لم يبدأ الا بعد أن قطنا دارنا الجديدة . . . والتي تصادف وجودها بجوار دار صاحبى القديم هو وزوجته .

انى لأذكر زيارتهما الأولى لنا . . . وأذكر ذلك البغض الذى سست به يتدفق من قلبى نحو المرأة الأخرى .

وأذكر ذلك السؤال الأحمق الذى خطر لى . . . ترى ماذا كان يحدث لو لم ألق بالخاتم فى وجهه فى ذلك اليوم . . . وانتهى الأمر بنا الى الزواج .

ولكن عدت سريعا الى نفسى واستنكرت ذلك الخاطر . . . انى هانئة بزواجى فيجب الا أفسد حياتى بمثل تلك السفخافات . . . وحاولت جهدى بعد ذلك الا أكثر من رؤيته . . . وألا أجعل من

حطام الذكريات البائدة هيكلا يحجب ما أنا فيه من نعمة ، ويسلبنى ما أنا فيه من رضا وقناعة ٠٠٠ ومع ذلك فقد بدأت حياتنا بعد ذلك يعتمدها الجمود والسامة ٠

أجل ! ان العلة فى نفسى والداء فى قلبى ، فهذا الشجار الذى اثرته اليوم ، لم يكن هناك قط ما يدعو اليه ٠٠ فما كانت بى رغبة شديدة فى الرحيل عن القاهرة ، لولا أن علمت أن الرجل الآخر سيرحل بامرأته الى الاسكندرية ٠٠ ولست أستطيع الجزم بأنى كنت أرغب فى الرحيل خلفه ، ولكن من المحقق أننى كنت أكره ان تتمتع المرأة الأخرى بما أنا محرومة منه ٠ يا لى من حمقاء تحطم حياتها بيديها !! يجب على أن أقتلع نفسى من تلك الحشائش الدخيلة التى تحاول أن تفسد على زهرة حياتى ٠٠ يجب على أن أشعر بالقناعة والرضا ، وأن أسعد بزوجى العزيز ٠

وهنا أحسست برغبة فى النوم ٠٠ فتركت الأريكة ، واستلقيت على الفراش ، ورحت فى سبات عميق ٠

ورأيت فيما يرى النائم أنى قد أحسست أن بالباب ضجة وضوضاء ، وأننى قد قفزت من فراشى فزعة خائفة ٠٠ وتملكنى خوف شديد وشعرت كأن يدا تعصر قلبى ٠٠ لقد أحسست أن كارثة توشك أن تحل بى ٠٠ وكدت أتنبأ بما حدث قبل أن أراه ٠ واندفعت الى الباب ، فأبصرت رجالا يحملون جثة قد غطيت بملاءة بيضاء ٠٠ وأخذوا يقتربون منى قليلا ، فبدرت منى صرخة فزع ، ولم أعد أبصر أمامى شيئا ، وسقطت مغشيا على ، فقد كانت الصدمة أقوى من أن يحتملها بشر ٠

ووجدتنى بعد ذلك وحيدة فى الحياة ، كريشة فى مهب ريح عاصفة ، وأننى قد فقدت زوجى الذى مسح بحنانه سابق دمعتى ، وأزال بعطفه قديم لوعتى ٠٠ ولمكنى عدت قبضت عليه ٠٠ وكفرت

بنعمته ، وأخذت أنفصر - بسخافاتى - حياته وحياتى .
 ومرت الأيام وأنا أحس فى محنتى بوحشة شديدة . . وتلفت
 حولى فلم أجد سوى صاحبى القديم يمد يده فى رفق ليعيننى على
 السير فى الحياة . ويعرض على فى صمت عطفه وحبه ، ولم أستطع
 أن أرفض ، فقد كنت دائما أحس بضعف أمامه ، ولم يكن هناك أسهل
 من تركى تلك الذكريات القديمة تندفع الى رأسى لكى ألين له وأجيبه
 الى كل ما يطلب .
 وأخيرا انتهى الأمر به الى الانفصال عن امرأته وعادتها الى
 بلدتها ، وبذلك خلا لنا الجو . . فأسرعنا باقتناص الفرصة التى
 أضعناها منذ سنين خلت ، وتم الزواج .
 وكنت أحس بالزهو عندما أرى زوجى محط الأبصار ، وأعلم
 انه ملكى أنا وحدى . . لقد كان حاقظا رونقه وفتنته . . تماما كما
 كان يلقي علينا محاضراته . وكنا لا نفعل شيئا الا أن نجدق فى وجهه .
 وكانت حياتى الجديدة ، حياة ضميح ومرح . . ملأى بالولائم
 والحفلات ، والنساء والرجال ، واستسغت الضجيح فى بادئ
 الأمر . ولكنى بدأت أحس بالقلق منه ، وأخذت أشعر بالغيرة
 تملككنى من هؤلاء النسوة اللاتى يتطلعن الى زوجى ويحطن به
 وخيل الى بعد ذلك أن حبه لى قد فقد الكثير من حدته . . وأنى
 لم أعد لديه أكثر من متاع قديم ، وأنه دائم البحث عن متعة بين هؤلاء
 النساء اللاتى يحطن به هنا وهناك . وتذرعت بالصبر ، فقد كنت
 أشعر أنى ما زلت أحبه . . وقلت لنفسى ان من الخطأ أن أضيق عليه
 الخناق ما دامت المسألة لا تعدو اللهو البريء . . حتى وجدته ذات
 يوم عقب وليمة أقمنها لبعض الأصدقاء وقد احتضن احدى
 الصديقات بمنأى عن الأبصار
 وكتمت ثورتى فى نفسى . ولم أخبره أنى رأيته . . حتى كنا فى

ذات يوم وقد اخذ يعنفنى لأنى لم أنفذ بعض أوامره ، وهنا ثارت
ثأرتى ، فقد أحسست انى قد أصبحت عنده لا أزيد على خادمة ،
وبدأت أقارن فى نفسى بينه وبين زوجى الأول ، وبين حياتى اليوم
وحياتى الماضية •

وصحت به وأخبرته أننى قد برمت بالعيش معه ، وأنى أعلم كل
أفعاله الشائنة ، وأنه مخلوق أنانى لا يرى غير نفسه •• وأنى لا أندم
الآن على شىء كندمى على أننى لم أقدر زوجى الأول حق قدره •
ورأيته يبتسم قائلاً فى سخرية :

– أيتها الحمقاء •• كفى هذا ، فأنا أعلم أنك لو أعطيت الفرصة
مرة أخرى لما اخترت سوى ••• وعلى أية حال لا داعى للمقارنة ،
لأنه لا محل لها ، فأنا حى وهو ميت •

وهنا أبصرت بشبح زوجى الراحل وقد قام بينى وبينه وأخذ
يقترب منى فى سكون ودعة وقد علت ثشفته ابتسامته اللطيفة
الهادئة ، فلم أتمالك نفسى أن ركعت أمامه وهتفت به :

– انى أريدك •• لا تذهب انى فى حاجة اليك •• انى لا أطيق
الحياة بعيدة عنك •• انى لا أريد ذلك الرجل •• لا أريده •

ولكن الشبح أخذ يتلاشى فى هدوء حتى اختفى ، ولم يبق أمامى
سوى الرجل الأنانى يبتسم ابتسامته الصفراء •• فارتيمت على
الأرض ناشجة باكية •

وهنا أحسست بيد تهزنى هذا عنيفا ، ففتحت عيني فإذا الخادمة
توقظنى وهى تصيح بى :

– استيقظى يا سيدتى •• ما بالكَ نيكين ؟

وتظرت الى الخادمة فى دهشة وسألتها عن سيدها فأخبرتني انه
لم يحضر بعد من عمله •• وتنفست الصعداء ، فقد علمت أن كل ما مر
بى من موت زوجى ، وزواجى بصاحبى الأول لم يكن الا حلماً ، وأن

زوجى العزيز المحبوب لم يمسه سرى ، فأقسمت فى نفسى أن أجعل
من ذلك الحلم عبرة وموعظة ٠٠ وألا أذكر وسعا فى سبيل أسعاده ٠
ونهضت من الفراش وطلبت من الخادمة أن تنصرف الى عملها ،
ولكنها لم تكذ تخطو خطوة واحدة حتى سمعت بالباب ضجيجا ،
وأحسست بقشعريرة تسرى فى جسدى ٠

يا لله ٠٠ لشد ما كانت تشبه هذه الضوضاء والصخب ذلك الشئ
الذى رأيته فى الحلم ٠٠ أترى الحلم سيتكرر مرة أخرى ؟ أترانى
ما زلت نائمة ؟ أجل اننى فى حلم ، لا شك فى حلم ٠

واندفعت الى الباب فرأيت الرجال يحملون الجسد ، وقد لف
فى الملاء البيضاء ، ولم أتمالك أن صرخت فى قزع :

- انه حلم ٠٠ انه حلم ٠

وصمعت المرأة ثم نظرت الى نظرات حزينة ، وقالت فى صوت
أشبه بالأنين :

- انى أنتظر عودته يا سيدى ٠٠ اليس ما رأيته حلما ؟ ! أولم
أزل نائمة ؟ !

وقفز الى ناظرى منظر ذلك الرجل الذى رأيته يعبر الطريق فى
أطراق ووجوم ، وقد فاجأته إحدى العربات المسرعة فطوته تحت
عجلاتيها وتركته أشلاء محطمة

وأدبرت وجهى لأخفى ما اعتراه من حزن وأسى ، وقلت فى صوت
خافت :

- أجل يا سيدتى انه سيعود ٠ لقد كان كل ما رأيته حلما ٠ انك
قطعا ما زلت نائمة ٠

امراة محرومة

هذه مذكرات امراة مجنونة ٠٠ أو على الأصح ٠٠ امراة محرومة حاولت أن تعوض نفسها عن ذلك الحرمان الذي أصابها به الحياة ٠ فنجحت في ذلك الى أبعد حد ٠٠ وإن كانت لم تسلم من أن يتهمها الناس بالجنون ٠٠ ولكن ماذا يضيرها أن يقولوا عنها مجنونة ٠٠ وإن كانت قد استطاعت أن تمنح نفسها ما قد حرمتها الحياة إياه ٠

ولقد لمحت المرأة مرة أو مرتين ٠٠ وهي حبيسة في دارها ٠٠ في شرودها وذهولها ٠٠ ونحولها وذبولها ٠٠ فلم أشك قط في أنها لا يمكن أن تكون إلا مجنونة ٠٠ ثم أثبتت بعد ذلك بوفاتها ٠٠ فلم يدهشني النبأ ٠٠ فقد كانت أقرب الى الأموات منها الى الأحياء ٠٠ حتى لقد خيل الى أنها هيكل أو شبح ٠٠ ثم استطعت بعد ذلك - بطريقة ما - أن أطلع على مذكرات اعتادت أن تكتبها من حين لآخر ٠٠ وأدهشني أن تكتب المرأة مذكرات لها ٠٠ وأقبلت على قراءتها بلهفة شديدة ٠٠ فقد كان بي شوق الى أن أقرأ كتابة مجنون ٠٠ وخاصة هذه المرأة ٠٠ إذ كنت أود أن أعرف فيم كان ذهولها وشرودها ٠٠ وكيف كانت طريقة تفكيرها ٠

وأخيرا انتهيت من قراءة المذكرات ٠٠ فلم أحاول أن أبرى المرأة من الجنون ٠٠ حتى لا اثير جدلا ٠٠ ولكننى لم أستطع أن أمنع نفسى من التساؤل ٠٠ ما هو الجنون ؟ وما هو الحد الفاصل بين العاقل والمجنون ؟ ٠

ألم يحس أحدكم ذات مرة بذلك الألم الذى ينتابه عندما يشعر بعجز أمام شخص قوى يحاول إيذائه وهو لا يملك أن يرد الأذى ؟ ٠٠ ثم ألم يحس بألمه يزول وغضبه ينقشء عندما يخلو الى نفسه ، فيتصور أنه قد حطم ذلك الشخص القوى ورد عن نفسه ذلك الأذى ؟ أجل ٠٠ أولم يحس بالكثير من الراحة لمجرد ذلك التصور ؟

ألم يحاول أحدكم عندما يحرم متعة من المتع ، أو لذة من اللذات أن يتلمسها عن طريق الخيال ؟ ! ألم يعجز أحدكم ذات مرة عن نيل امرأة جذبه اغراؤها ٠٠ فلجأ الى الخيال لينالها فيه ٠٠ وأحسن فى ذلك بالكثير من الرضاء ؟

هل اتهم نفسه حينذاك ٠٠ أو اتهمه أحد ٠٠ بأنه مجنون ؟ اذا فلم تنتهم هذه المرأة بالمجنون وهى لم تفعل أكثر مما يفعله امرؤ حاول أن يتلمس متعته عن طريق الخيال ٠٠ ؟

على أية حال ٠٠ مجنونة كانت أم غير مجنونة ٠٠ اليكم مذكراتها فاقراوها وقولوا ما شئتم ٠٠ فما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها :
 • خمسة وثلاثون عاما ؟ يا للسنين التى تمر فلا تترك لى سوى الألم ، ولا تخلف لى غير الوحشة والفراغ ٠٠ أية حياة تلك التى أحيائها ٠٠ ما أشبهنى بسائحة فى بيداء مقفرة جرداء ٠٠ لا ماء فيها ولا رواء ، ولا ظل ولا ثمر ٠٠ كلها سامة فى سامة وملل فى ملل ٠٠ لا أبصر سوى الأمل السرابى ، واللمحات الكاذبة ٠

انى أنتظر وأنتظر ٠٠ وأحس بالعمر يتسرب ، والأعوام تولى متسللة ٠٠ فتتملكنى لوعة ٠٠ ويفشأنى أسى اليم ٠٠٠ ولكنى اتظاهر

بالرضا والقناعة .. وماذا أستطيع غير ذلك ، وأنا لا أملك سوى
التمنى والانتظار .

انى امرأة محرومة .. محرومة من الشيء الذى خلقت لأجله ،
محرومة من نعمة الحياة التى تتوق اليها نفس كل أنثى . محرومة
من الزوج والبنين .. محرومة من كل شيء الا الفراغ والوحدة !
ومع ذلك فلا يسعنى سوى الصبر وادعاء السعادة ، خشية
السخرية ، وأنا التى لو كان الأمر بيدها لصاحت بكل ما فى صدرها
من لوعة مكبوتة : « أريد زوجا .. أريد بنين ! » .

خمس وثلاثون عاما .. مرت ثقيلة بطيئة .. فما وهبت لى
الا زيادة فى العمر ، وزيادة فى الشعور بالحرمان .. انى لأنظر فى
المرأة فأرى هبتها جليلة فى وجهى .. ذبول ونحول وشحوب .

لقد مللت الحياة .. ومللت العمل .. ما أسخف أولئك الذين
يظنون ان المرأة يغنيها العمل عن الزواج .. هم يظنون ان الزواج
وسيلة للعيش .. أو مورد للرزق .. ما أشد حمقهم ! لقد كرهت
ضجيج الحياة . وضجيج العمل .. فهو ضجيج أجوف كالطبل .
قد خلا من موسيقى الالف وتغريد البنين . انى أحس بالرغبة فى ان
أستريح من حياتى برهة .. انى أتوق الى شيء من التغيير أيا كان .

كم سرنى ان أبتقل الى هذه الدار النائية فى احدى الضواحي
لا شك ان الصيف فيها سيكون خيرا منه فى جوف المدينة ، ولا شك
انى سأجد تسلية فى حديقتها الواسعة .. انها تحتاج الى كثير من
العناية والتنسيق .. ثم ان أجرها أقل كثيرا من أجر الطابق الضيق
الذى كنت أقطنه فى وسط المدينة .. فهى من تلك الدور التى يعرض
عنها السكان فتنزل خالية .. لا شيء الا مجرد ما يشيعه عنها الناس
من انها « مسكونة » . وما تجود به خيالاتهم عما رأوه فيها من جن
وما صادفوه من أرواح وأشباح .

ولم اتردد برهة فى الانتقال اليها ٠٠ وقلت لنفسى ضاحكة : من يدرى عساي أن أجد فى الجن والأرواح ما يؤنس وحدتى ٠٠ ويذهب وحدتى ٠

وسرقتنى حياتى فى الدار الجديدة ٠٠ فقد أحسست بشيء من التغير ، وخاصة أننى قد بدأت عطلة الصيف ٠٠ فصمتت على أن أتمتع بحياة جديدة ٠٠ وأن أنعم بالحديقة والهواء ٠٠ والا أفعل شيئاً سوى النوم والقراءة ٠

ومر الأسبوع الأول وأنا منهمكة مع البواب وامراته فى تنظيف الدار من تلك الأتربة المتراكمة ٠٠ وفى تنسيق الحديقة وإزالة الأعشاب والحشائش ٠٠ حتى ذهب عنها ذلك المنظر الموحش الذى كانت تبدو به ٠

ولا أستطيع أن أنكر ذلك الشعور بالرهبة الذى كان يملكنى فى بادئ الأمر ٠٠ عندما كنت أذهب الى الفراش بعد أن أطفىء النور ٠٠ أو عندما أسمع فرقة هينة أو صوتاً يصدر من هنا أو من هناك من تلك الأصوات التى لا يخلو منها أى بيت ٠٠ كصوت نافذة يغلقها الهواء ٠٠ أو قطة تقفز فى الحديقة أو تمشى على السطح ٠٠ ولكن الرهبة أخذت تزول على مر الأيام ، وحل محلها اطمئنان الى كل ما فى الدار ٠

وفى ذات يوم جلست فى ركن ظليل بالحديقة ٠٠ وأخذت أتسلى بقراءة احدى القصص ، وقد جلست أمامى امرأة البواب ترتق بعض الثياب ٠٠ وأجستت بتعب من القراءة فالتقيت بالكتاب جانبا ٠٠ وتشاءبت فى كسل ٠٠ وبدأت أجادب المرأة أطراف الحديث ٠٠ حتى جرننا الحديث الى ذكر تلك الاشاعة التى يطلقها الناس على الدار وما يرجفون به من أنها « مسكونة » ٠٠ وكيف تسبب ذلك فى أن تمكث الدار مهجورة طوال تلك المدة ، وقالت المرأة :

— أنا لا أنكر يا سيدتى أن هناك دورا « مسكونة » ، ولكن الواقع أن هذه الدار بالذات مظلومة بين هذه الدور ، لأنى لم أر فيها شيئا قط ، وكل ما سمعته عنها قصة قديمة لست أدرى مداها من الصحة ، وهى أن صاحبها الأول قد شيدها لتكون سكنا له ولزوجته الجميلة المحبوبة ، وأن حياتهما كانت نموذجا لحياة هادئة ، وقد زادت سعادتهما بذلك الطفل الجميل الذى أنجباه والذى نما وملا البيت تغريدا وترنينا ، وفى ذات يوم غابت الزوجة عن البيت ، ثم اكتشف الرجل أنها فرت مع عشيق لها تعودت أن تذهب إليه فى غفلة منه ، وكاد الرجل يصعق ، ولكنه تجلد وتمالك ، ووجد فى ولده العزاء كل العزاء ، وسرعان ما شفى الله جرحه وأذهب لوعته . وبدأ يجد السعادة فى حياته مع ابنه ، وأخذ يكرس لتربيته والعناية به كل وقته ، حتى كان ذات يوم وقد جلس الرجل فى الحديقة يقرأ ، فسمع فجأة صوت سقوط جسم يصطدم بالأرض وصرخة مدوية تشق السكون المخيم ، وقفز من مكانه كمن لدغته عقرب . فوجد الصبى قد هوى من الشرفة وهو يلهو ، فدق عنقه ومات لساعته .

وهجر الرجل الحزين الدار فلم يعد إليها قط ، ولا يدرى أحد ما حل به بعد ذلك . . . ربما قد جن . . . وربما قد انتحر . . . انها قصة قديمة .

وانتهت المرأة من قصتها ، التى لا تدرى هى مداها من الصحة ، والتى قد تكون محض خرافة ، ومع ذلك فقد انتابنى من سماعها شعور بالحزن عميق ، وأحسست بعطف شديد على الرجل الذى ربما لم يكن له وجود الا فى خيال المرأة ، أو فى خيال من قص عليها القصة .

ولا أدرى ما الذى جعل القصة تتجسم فى مخيلتى ، ولا أدرى ما الذى جعلنى أزج بنفسى بين أبطالها ، فأقارن بينى وبين الزوج

الخائنة التى وهبت لها الحياة كل ما حرمتنى اياه .. وهبت لها الزوج الوفى الأمين ، والابن الذى اتلف عليه .. فركلت كل هذا بقدمها ، وفرت من عشها لا تلوى على شيء . أترانى لو كنت مكانها ، أكنت أفعل ما فعلت ؟ وتخيلت الرجل أمامى يعدو فى الحديقة ضاحكا خلف الصبى .. وتخيلت أنهما زوجى وابنى ، فأحسست بنشوة عجيبة ، وقلت لنفسى : ان المرأة الهاربة لا شك بلهائم مخلولة ، كافرة بنعمة الله .

وفى هذه الليلة بدأت أحس أول تغير يطرأ على الدار ، وخيل الى أنى أسمع وقع أقدام تسير فى الحجرات .. وأحسست بخوف شديد ، ولكنى وجدت الحجرات خالية فلم أشك أننى واهمة . ومرت الأيام ، فازداد شعورى بالأصوات والهمسات حتى كانت تمر بى لحظات لا أشك فى خلالها أن هناك أشخاصا غيرى يتحركون فى الدار . ولكنى لا أبصرهم ، وفى ذات ليلة جلست اقرأ قبل النوم ، وسمعت الأصوات واضحة تمام الوضوح كأن أصحابها يجلسون فى الحجرة المجاورة !

وكان الصوت صوت طفل ورجل . وسمعت الطفل يقول : « غن لى أبوح .. يا أبوح » .
وأجابه الرجل متسائلا : « ثم تنام ؟ » .
- أجل ...

وبدا الرجل يغنى « أبوح يا أبوح كلب العرب مذبوح » .
وصاح الطفل فجأة متسائلا : « ومن الذى ذبحه ؟ » .
وتردد الرجل برهة قبل أن يجيب فى حيرة : « لقد وجدوه هكذا مذبوحا .. ولم يعثروا حتى الآن على القاتل » .
ورغم ما أصابنى من خوف وقتذاك لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك بصوت مرتفع .. وخيل الى أن الصوت قد وصل الى الطفل

والرجل ٠٠ فقد كفا عن الحديث ٠٠ وتسلمت الى الغرفة المجاورة فلم أجد بها أحدا ! ٠

ومنذ ذلك الحين ازداد يقينى بوجود الرجل والطفل ٠٠ وبدأت أحس بهما فى كل مكان من الدار ٠٠ وأخذت أنصت الى تلك الأحاديث التى تدور بينهما دون أن أرسل صوتا أو حركة حتى لا يكفا عن الحديث ٠٠ فقد كنت أحس من وجودهما بنشوة عجيبة ، مشوبة بشيء من الخوف ٠

وخيل الى أنى قد بدأت لعبة خطيرة ٠٠ لعبة لم يحاولها أحد سواى ٠٠ قد يكون الطرف الآخر فيها من صنع الوهم ، ولم أجد ما يمنع من أن أستمرفى اللعبة ، ما دمت أحس منها بمتعة ، ولكنى صممت على أن أحيط نفسى بالكتمان والأنايبء أحدا بتلك الأشباح التى أحس بحركاتها وأسمع أصواتها ٠٠ فقد خشيت أن اتهم بالجنون ٠٠ على أنى لم أكن فى يوم ما أوفر عقلا منى الآن ٠

وبدأت أحاول أن أبصر الرجل وابنه ، فما كنت أسمع همسا أو صوتا حتى أتسلل فى اتجاهه . ولكنى كنت لا أرى شيئا ، ومع ذلك فقد كنت واثقة من وجودهما ٠٠ أجل ٠٠ من المحال أن يكونا غير كائنين ٠

وأستيقظت ذات صباح على صوت أشبه بصوت دراجة صغيرة من دراجات الأطفال ذات العجلات الثلاث تتحرك على أرض الصالة ، فمددت رأسى قليلا لأبصر الصالة من خلال الباب ، فرايت عجبا ٠

لقد كان الطفل هناك ٠٠ بدمه ولحمه ٠٠ ووجتيه المتوردتين وشعره الأصفر المدلى على جبينه ، وشعرت بغبطة شديدة ووجدتني أناديه بصوت كالهمس . ولم يبد عليه أنه سمعنى . ولكنه اختفى مرة واحدة ٠٠ أجل لقد اختفى ، دون أن أعرف كيف اختفى ، لقد كان هناك منذ ثمانية ٠٠ وفى الثانية التى تلتها لم يكن هناك ٠٠ !

وفى ذلك اليوم طردت الخادمة ، فقد رغبت أن أكون فى الدار وحيدة ، ثم رأيته كثيرا بعد ذلك يروح ويغدو فى الدار . . . يضحك تارة ويصيح أخرى . . . وبدأ يعبث بأثاث الدار ، ويقلب المقاعد ليتخذ منها (حميرا) يمتطيها .

ولم يكن الطفل يرآنى أو يحس وجودى ، ولم يكن صوتى يصل الى سمعه ، ومع ذلك فقد أشعر أنه أصبح قطعة منى ولم أحاول أن أترك الدار بعد ذلك لحظة واحدة أو أقابل أحدا فقد سرتنى الحياة مع الطفل وأبيه ، وأن كنت لم أبصر أباه بعد .

وكننت أتهرب من رؤية البواب وزوجته ، ومنعت البستاني من أن يباشر عمله فى الحديقة ، فقد كان الطفل كثيرا ما يلهو بعمل بيوت من الرمل فيها ، وكننت أكره أن يراه الناس . وفى ذات يوم أقيلت على امرأة البواب ورأيته تنظر الى نظرات بها كثير من الرافة والحزن ، وأنباتنى المرأة أننى قد هزلت كثيرا وأننى يجب على ألا أسجن نفسى فى الدار على هذه الحال .

وشكرت المرأة وأنباتها فى اقتضاب انى أحس ميلا الى الوحدة ، وأننى لا أرغب فى الخروج ، وتركتنى وهى تهز رأسها فى دهشة وحيرة .

ولم تكذ تنصرف حتى قمت الى المرأة ، وكانت هذه أول مرة - منذ بدأت أنهمك فى حياتى الجديدة - أقف فيها أمام المرأة ، وراعتنى تلك الصورة التى أبدو عليها . . . وهالنى ذلك الاصفرار والشحوب . . . وذلك الشعر المهمل الشبيه بشعر امرأة مجنونة ، ومددت يدي الى المشط لأعيد تمشيطه وتصفيفه ، ونظرت فى المرأة فلم أجدنى وحيدة !

أجل لقد أبصرت لأول مرة ، وقد وقف بجوارى يمشط شعره هو الآخر ، وقد بدا حلو التقاطيع ، جذاب الملامح ، طويل القامة ، متين

البنيان ، وأحسست بفرحة لا توصف ، ثم التفت اليه فلم أجد شيئا ،
وأعدت النظر الى المرأة فوجدت الصورة قد ذهبت أيضا •

ثم اعتدت أن أبصره بعد ذلك •• هو وابنه • ووجدتني أكن لهما
حبا عجيبا • أجل ! لقد أحبيت هذين « الشبه كائنين » أكثر مما
أحبيت أى « كائن » فى هذه الحياة •

وحاولت أن أتحدث اليهما •• ولكنهما لم يسمعاني •• وحاولت
أن أنظر فى أعينهما فلم يبصرانى •• وعندما كنت أتقدم لأمسهما
كانا يتطايران فى الهواء •

وحدث ذات يوم وقد جلست فى إحدى الحجرات أن رأيت الطفل
يدخل الى الشرفة ويمد رأسه من فوق الحاجز • وتذكرت القصة التى
سمعتها من امرأة البواب ، وكيف سقط الطفل من الشرفة فدق عنقه
•• فصحت به ناهرة اياه كيلا يطل من الشرفة ، وكما كانت دهشتى
شديدة عندما رأيت الصبى يسمع صيحتى فالتفت الى ثم يعود الى
داخل الحجرة •

ومنذ ذلك الوقت والصبى يعرفنى تمام المعرفة ويبصرنى كما
أبصره ، ويزدجر اذا ما زجرته ، ويطيع اذا ما امرته •• بل أكثر من
ذلك أنه كان ينادينى « ماما » ويا للمتعة العجيبة التى كنت أحس بها
وقتئذ •

ولم تمض فترة قصيرة حتى بدأ الرجل نفسه يجس وجودى
ويرانى كما أراه ، وكان ذلك فى إحدى الأمسيات وقد جلس فى
الحديقة فى سكون الليل ، وشرذ ذهنه ، فراح فى تفكير عميق ،
وخيل الى أنى الملح فى قسماته حزنا ولوعة ، لم أشك فى أنه يفكر
فى امراته الهاربة ، وأحسست نحوه حينها ، وتمنيت لو استطلعت
أن أنسيه اياها ، وأن أعوضه عن حبها بما يخفف من لوعته ويذهب
من حزنه •

ورغم معرفتى أن صوتى لا يمكن أن يصل اليه ، وإننى لو لمسته .
لنطائر وتحلل . فقد وجدتنى اندفع اليه بقوة الحنان الذى يجيش
فى صدرى . ولمست ذراعه . فلم يتطاير فى هذه المرة ، بل انتفض
ورفع الى رأسه فى دهشة .

ومددت يدى الى رأسه اتحسسه برفق ، فرأيته قد استراح الى
وزالت عنه تلك الدهشة . ونظر الى كائننى لست غريبة عنه ، أو كائنى
امراته المحبوبة التى ما فارقته وما هجرته .

وفى الصباح سمعت امرأة البواب تطرق الباب . وترددت برمة
قبل أن افتح لها ، فقد كنت لا أريد أن أرى أحدا . وكنت أحس
كراهية شديدة للناس . ولكن المرأة المجنونة ألحت فى طرقها ، فقامت
الى الباب غاضبة وسألتها عما تريد ، ونظرت الى المرأة وقد بدا
عليها الفرع كأنما قد أبصرت شيئا مخيفا ، وتوسلت الى أن أرحم
نفسى وأن أزور طبيبا . ولكنى صحت بها أن تغرب عن وجهى وأغلقت
الباب خلفها بشدة . وعادت المرأة أدراجها ووصل الى صوتها وهى
تقول لزوجها : « مسكينة . . لقد أصبحت مجنونة » .

مجنونة ! أنا مجنونة ؟ أيها الحمقى . . اليكم عنى . أتركونى
حيث أنا . . ماذا يهمنى منكم . . ومن دنياكم . . بعد لحظة أو بعد
يوم . . أو بعد عام . . ستكفون عن الحياة . . وسأكف أنا كذلك . .
ويعذ حين من الدهر . ستكف الحياة نفسها عن أن تسرى فى هذا
الكون وستصبح كلنا كهؤلاء الذين الذين أعيش معهم والذين أعطونى
ما حرمتونى ومنجونى ما بخلتم به على .

ماذا أخشى ولم أعد بعد محرومة . . وماذا تخشون على شرا
من الحرمان الذى كنت قيسه . . هبونى كما تقولون مجنونة ماذا
يضيرنى من الجنون وقد وهب لى ما حرمت ، وهب لى الزوج والابن
. . لو كنت حقا مجنونة كما تقولون . . « فأنعم بالجنون وطوبى
للمجانين » . .

امراة.. ورماد

الرماد هو ذلك الشيء البارد الخامد الذى يتخلف عن جمره كانت تتأجج بالنيران وتسطع بالضوء .. وظل من حولها يجدون فيها دفئا وهداية .. وكلما انبعثت منها حرارة أو شع منها ضياء .. خلف مكانه ذلك الشيء - أو اللشء - الذى نسميه رمادا .. وهكذا تظل الجمره تعطى عصارة قلبها وتهب خلاصة روحها دون أن تسترد مقابلا سوى الخمود لنفسها والرضا لمن حولها .. وهكذا تستبدل بالحياة غناء ، وبالضوء ظلمة .. وتمر بها الأيام .. وهى تتضاءل وتتضاءل .. حتى يحتويها الليل ذات مرة فإذا هى قد أضحت خامدة باردة ، وإذا كل ما فيها قد أضحى رمادا فى رماد ..

هذا هو الرماد بمعناه المألوف .. أما فى هذه القصة ، فهو لا يعنى سوى امرأة .. أو بقايا امرأة .. لشد ما راعنى ذلك الشبه بينها وبين الرماد الذى يتخلف عن الجمره التى وهبت من حولها ضوء نفسها وحرارة قلبها ، ثم تركوها بعد أن خبا منها الضوء وخمدت فيها الحرارة .. كأنها هشيم تذروه الرياح ..

كنا صحبة من الخلان نتسامر فى منتدى عام ، وعرج بنا الحديث على ذكر البطولة والابطال ، وذكر أحسنا ما قرأه عن « توماس كارليل » من وضع البطل فى صورة اله وفى صورة نبى وفى صورة قائد ٠٠ فسمعت آخر يقاطعه :

— هل تحدث كارليل عن البطل فى صورة خياطة ؟

ونظر الى المتحدث شزرا وقال هازنا :

— اتهزل ؟

ولكن الآخر أجابه فى دهشة :

— كلا ٠٠ ليس فى قولى شئ من الهزل ، وأقسم أن كارليل لو عاش حتى سمع قصة هذه الخياطة ، لما توانى عن أن يضيفها الى قائمة أبطاله .

وصمت لحظة حتى تطلعنا اليه بأبصارنا وأصغنا له ٠٠ ثم بدأ الحديث :

— هى مدموازيل ايرين ٠٠ وقد رايتها لأول مرة عندما كنت خاطبا ، وقد رافقت خطيبتى اليها لقياس بعض البروفات ٠٠ وأقول الحق ان مرأها قد خذلنى خذلانا شديدا ٠٠ فما كنت أتوقع قط أن اراها كما رأيت ٠٠ ان كان الاسم ٠٠ « مدموازيل » ٠٠ يوحى الى بانى سارى فتاة جميلة لا تقل جمالا بأية حال عن سميتها « مدام ايرين » بائعة العطور ولكننى لم أكد أبصرها ، حتى همست فى أذن خطيبتى فى دهشة : « أهذه مدموازيل ؟ ! » . وكان لى العذر ، فقد رأيت أمامى امرأة شمطاء ، وخط الشيب شعرها ، وملأت التجاعيد وجهها ، وبدت العروق خضراء بارزة فى يديها !

وتحدثت الينا ، فوجدتها لطيفة المجالسة ، حلوة الحديث ، لا يبارح السرور وجهها ، ولا تفارق البسمة شفقتها ، فهى مثل لامرأة قريرة العين ، مغتبطة النفس .

وترددت عليها بعد ذلك بضع مرات مع خطيبتى ٠٠ فزادت بيننا
أواصر الصداقة ٠٠ وكنت أحس من فرط رقتها وكرم نفسها ٠٠ أنها
ليست مجرد حائكة ثياب ٠٠ بل أكثر من هذا ٠٠ كنت أراها : امرأة
مهنية ٠

وفى ذات يوم - قبيل الزفاف - ذهبت إليها وحيدا لأسألها عما
إذا كان ثوب الزفاف قد تم صنعه ٠٠ فقابلتنى كماداتها هاشة باشة ،
وجلست تتحدث الى ، ثم قالت :

- ستر عروسك بثوبها أيما سرور ، فقد حاولت جهدى أن اتقن
صنعه ، فجاء آية فى الابداع ٠ والواقع أنى لا اتقن شيئا كما اتقن
صنع ثياب الزفاف ٠٠ لأننى أجد لذة فى صنعها ٠

وصممت المرأة ، وبدأ عليها شيء من شرود الذهن ٠٠ ولم أدر
كيف أعلق على قولها ، وإن كان قد جال برأسى أن لذتها فى صنع
ثياب الزفاف شيء طبيعى ، فأغلب ظنى أنها تستعيز بذلك عما
حرمتها الأيام أياه ٠٠ وأنها تحبى بها بعض آمال ساورتها فيما مضى
من العمر ٠٠ ولكن الظروف القاسية لم تجعل منها أكثر من آمال ٠٠
وخيل الى أن تلك اللذة التى تجدها فى صنع ثياب الزفاف أشبه شىء
بتلك اللذة التى يجدها مصور فقد حبيبته فعكف على رسم صورتها
٠٠ ليستعين بذلك على اطفاء جمره فى قلبه وحرقة فؤاده ٠

ورأيت الصمت قد طال ٠٠ فلم أجد بدا من قول بضع كلمات
أزيل بها شرود المرأة ، فقلت لها مستضحا :
- لا بد أنك قد صنعت منها المئات ٠

ولكن المرأة لم تضحك ، بل هزت رأسها ببطء وأجابت بصوت
خفيض :

- أجل ٠٠ لقد صنعت المئات ٠٠ وكان أولها ذلك الثوب الذى
ما زال مستقرا دون أن تمتد إليه يد حتى وهت خيوطه ورق نسيجه !

وادهشتنى رنة الحزن التى بدت واضحة فى صوت المرأة وهى التى ما رأيتها قط الا مازحة ضاحكة .. وخيل الى أنى قد أثرت فى نفسها مرارة ذكرى ، ونكأت فى قلبها قرحا ، وادميت جرحا ، وخشيت أن أجيبها بكلمات قد تزيد من لوعتها ، فالتزمت جانب الصمت، خاصة وأنى رأيت منها ميلا للفضفضة ، فتركبتها تتحدث .. لعل حديثها يعود بها الى سابق مرحها .

وبدأت المرأة تقص على قصة حياتها .. قالت :

– ثلاثون عاما قد مضت على ذلك الحادث المشؤم .. وكان ذلك فى عام ١٩١٥ وقد حملوا الينا جثة أبى بعد أن دهمته احدى العربات وهو يحاول انقاذ طفلة تعبر الطريق .. فنجح فى انقاذ الطفلة ولكنه لم ينقذ نفسه .. وأنى لاذكر كيف شعرت وقتذاك بالوحدة والوحشة ، وكيف أحسست بالظلمات تكتنقنى من كل جانب ، وأنا أقف بجوار أخوى الصغيرين ولا عائل لهما سوى – ان صبح أن مثلى يمكن أن تكون عائلا – فقد توفيت آمنة منذ بضع سنوات .. وكنت أقوم أنا بأخوى مقام الأم ، ولكنى أحسست بعد ذاك أننى لا بد أن أكون أما وأبا ..

وتحاملت على نفسى وصممت على أن أكون قوية شجاعة . ولا اظننى كنت أستطيع السير وقتذاك .. لولا تلك القوة الخفية التى كنت أحس بها تشد أزرى . ، ولولا ذلك الاحساس بأن هناك من يعيننى بحبه ، ويؤمن خوفى ، ويؤنس وحشتى ..

وانذكر كيف التفتت به بعد الكارثة .. وكيف ضمنى اليه فى رفق وحنان وسألنى الزواج ، فانبأته أن لا بد لنا من الانتظار حتى يبلغ الصبى أشده ويستطيع أن يعمل نفسه فى الحياة .. ونظر الى دهشا وأنبأنى أنه يستطيع أن يتولى أمرنا جميعا .. ولكنى – رغم أنه لم يكن أحب الى نفسى من تلك الأمنية – لم أكن حمقاء حتى أندفع

معه ، فأحمله عبء زوجة وصبيين ٠٠ اذ كنت أعلم أن تحمله المحدود لا يكاد يكفينا نحن الاثنين ٠٠ وكنت أعلم أن ذلك المبلغ الذى يخصنى من معاش أبى ، والذى كنا فى أشد الحاجة اليه ، سيفقد بمجرد زواجى . فلم أود أن أكون حملاً ينقض ظهره ٠٠ وصمعت على أن نتذرع بالصبر حتى أصبح فى غير حاجة الى ما أصيبه من معاش .

ورأيت اليأس قد تملك نفسه ولكنى أحسست به يضمنى بين

ذراعيه ويهمس فى أذنى : سأنتظر ما دمت تريدن ذلك .

ومرت الأيام ، وبدأت أعمل بالتدريج فى حياكة الثياب فقد كنت ماهرة فى صنعها ٠٠ ولقد رأيت مطالب الحياة تتطلب أكثر مما كنت أظن ٠٠ وكنت لا أبخل بشئ قط على الصغيرين : الصبى والصبية ٠٠ وكانت الصبية رقيقة الجسد وفى حاجة الى عناية شديدة ٠٠ وكانت تحتاج من أن لأخر الى زيارة طبيب ، أو شراء دواء . وكنت أرى بالصبى ميلاً شديداً الى صنع التماثيل ٠٠ وكنت أبصر فى عينيه شعاع نبوغ وطموح ، فصممت على ألا أجعله يخبو ٠٠ بل تعهدته بالعناية والرعاية ٠٠ ولم أبخل بشراء كل ما يلزمه من أدوات النحت . وأنصرم عاماً ١٦ و ١٧ وبلغ الصبى الخامسة عشرة ٠٠ وبلغت الصبية الحادية عشرة ، وكنت أقنع من صاحبى بلقاء جميل بين حين وآخر ٠٠ تتمتع فيه بأحلامنا العذبة ٠٠ حتى التقيت به ذات يوم ، فأنبأنى فى سكون أنه سيذهب الى ميدان القتال .

كم اذكر ذلك اليوم ٠٠ انه منقوش فى مخيلتى كأنما حدث بالأمس فقط ٠٠ وهل أستطيع أن أنسى ذلك الدفء الذى أحسست به فى صدره ، وأنفاسه التى كانت تلهب وجهى ، وصوته الذى يهمس فى أذنى : كم أنت جميلة ٠٠ وكم أحبك ٠٠ كم أكره أن أترك وحيدة فى هذه الحياة العاصفة ٠٠ كم أود لو احتويتك فى بيت صغير جميل حيث أضعك موضع السيدة وأومئك من خوف وأريحك من غناء !

ولم أكن أحس بلهفة الى شيء قدر لهفتى الى ذلك الشيء الذى
همس به فى اذنى ٠٠ ذلك البيت الصغير الجميل الذى يحدثنى عنه ،
والذى سيضعنى فيه موضع السيدة ٠٠ بل لقد كنت أرى السيدة
شيئا كثيرا ٠٠ وكنت أحس أنه يكفينى جدا ان أكون موضع الخادمة
٠٠ ما دمت خادمته هو ٠٠ هو وحده ٠

وافترقنا بعد ذلك ٠٠ وبدأت أتلصص التعزية عن فراقه بطريقة
قد تكون عجيبة بعض الشيء ، ولكنها كانت لى خير سلوان ٠٠ لقد
بدأت أصنع لنفسى ثوب زفاف ٠٠ وكنت أسترق الساعات فأخلو الى
نفسى وأنهمك فى صنعه ٠٠ وقد تملكتنى نشوة عجيبة وشملنى جو
من الهناءة ممتع لذيق ، لكان للثوب أجنحة تطير به الى عالم الغد
الجميل والمستقبل الحلو ٠٠ فأبصر بنفسى بين أخضائه وتحت
أنفاسه : زوجين سعيدين ٠

وأخيرا انتهت الحرب ٠٠ ودقت نواقيس السلام ٠٠ وعاد الى
سالمنا ٠

ولم أستطع أن أغالب تلك الدموع التى انهمرت من عيني وقد
احتوانى بين ذراعيه بعد طول غيبة ، ومضت برهة طويلة دون أن
ينبس أحدا بيئت شفة ، وقد وضعت رأسى فوق صدره وأحسست
بأصابه تتخلل شعري برفق وهدوء ٠٠ وأخيرا سمعته يهمس :
- لقد طال بنا الانتظار ٠

فأجبت بصوت تقيض منه السعادة :

- أجل ٠٠ وليس بنا من حاجة الى الانتظار بعد ٠

ولم أكن أشك لحظة عندما قلت له ذلك ٠٠ أن هناك ما يستدعى
انتظارنا فقد أتم الصبى دراسته الثانوية ٠٠ وهو يستطيع بعد ذلك
أن يحصل على عمل يعول به نفسه ٠

وعلى ذلك ٠٠ فقد أقبل على الصبى بعد بضعة أيام ٠٠ وجلس

الى ممسكا بيدي برفق بين يديه ، ورفع الى وجهه الهاديء ، وعيناه تتألقان ببريق الطموح ، وتوحيان الى الناظر اليهما ان صاحبيهما نابغة عبقرى ٠٠ ثم سألتني فى هدوء ورقة ان كان يمكنه الالتحاق بمدرسة الفنون ، حتى يتلقى اصول النحت وحتى يصير مثالا عظيما فلا يقضى عمره قى عمل مغمور ٠

ووجعت برهة ٠٠ ثم أخبرتته انى سأنبئه فى الغد ٠ وفى المساء التقيت بصاحبى ، فأنبأته بالأمر ، وسألته ، وفى نفسى لوعة شديدة ، ان كان يمكننا الانتظار عاما آخر حتى ينتهى الصبى من دراسته الأخيرة ٠

ونظر الى صاحبى فى ذهول وياس ثم قال :
— عاما آخر ! أتظنين أننا قد كتبنا علينا التضحية فى سبيل الآخرين ؟ ان العمر اقصر من أن نضيعه عاما فعاما ٠

ثم غادرنى فى سكون والحزن يفيض من نفسه ٠ وتملكتنى اذ ذاك لوعة ٠٠ وعصف بى الأسى ٠٠ فقد ساءنى ان أسبب له ذلك الحزن ٠٠ وتبينت أنه لو كان الأمر يقتصر على ان أضحي بنفسى ٠٠ لاستطعت احتماله ٠ أما ان أشركه فى تلك التضحية ٠٠ فذلك ما لا أقوى عليه ٠

عزمت على أن أنبئ الصبى بحقيقة الأمر ٠٠ وان أسأله ان يقنع الآن بالعمل ٠٠ ومع ذلك فقد كنت أحس بالخجل من ان اقول له ذلك ٠٠ ورأيتنى أتهرب من لقائه فى تلك الليلة ٠

وفى الصباح لم أستطع لقاءه ، فقد خرج قبل ان استيقظ فحمدت الله لأننى كنت لا أدري كيف تطاوعنى نفسى على ان أضدمه بحديثى ٠٠ وقبيل الظهر رأيته قد عاد الى الدار ٠٠ أقبل على ياسما ، فاحسست بالاكئاب يملؤنى ، فلما تعودت قط ان أرفض له طلبا مهما

كان تافها . . فكيف بى وأنا أحاول أن أطفىء ذلك الشعاع من
الطموح الذى يضىء نفسه .

ورأيت الصبى قد مد يده الى بحفنة من النقود . . فسألته دهشة
من أين له بها ، فأثنأنى ببساطة أنه قد سمع حديث الأمس وأنه قد
دس لم عمله منذ اليوم .

وأحسست برجفة تنتابنى . . ووجدتنى أسأله هامسة :

— ولكن هذا مبلغ كبير !

وأجابنى برفق وحنان :

— لقد بعث كل ما أملكه من أدوات النحت ، وما لدى من تماثيل

. . حتى أقدمه لك هدية زواجك .

وهنا لم أستطع أن أمنع دمعين طفرتا من عيني ، واحتضنت

الصبى . . وقد أحسست أن تضحيتى قد تضاعفت بجانب تضحيته

وأسكنت بالنقود . . وغادرت الدار . . فاستعدت للصبى

أدواته ، وصممت على أن يتم دراسته .

وعندما التقيت بصاحبى أنبأته بما فعلت فنظر الى نظرقه الى

مجنونة . وقال فى يأس أنه لن ينتظر أكثر من ذلك . . ثم انصرف

عنى دون أن يلقي الى كلمة وداع .

وطالت غيبته . . حتى فوجئت ذات يوم بأن قرأت فى إحدى

الصحف نبأ خطبته . . وأنه سيتزوج بعد أسبوع !

وفى يوم زواجه أحسست بدافع لا يقاوم يدفعنى الى أن أذهب الى

الكنيسة ، وهناك اندسست بين الناس دون أن يشعر بى أحد ،

وتطلعت بعيني فأبصرت بالعروس وقد ارتدت ثوب الزفاف الذى

طالما حلمت به . . ونظرت الى الثوب الناصع ، وتذكرت ذلك الثوب

الذى يرقد فى مضجعه ، ثم تسلفت عائدة الى البيت كأننى شبح

يسرى

ومرت الأيام ٠٠ وتزوج الصبي ورحل الى داره ٠٠ ثم تزوجت
الصبية ورحلت الى دارها ، وبقيت وحيدة لا يؤنسني الا ذلك الثوب
الذي صنعته فى غمرة الأحلام ٠

وانى لأجلس الى نفسى أحيانا فأفكر فى مبلغ ما فعلت من
تضحية ٠٠ فلا اكاد أحس أنى فعلت شيئا ٠٠ فقد تمتعت بالحب فى
زمن الصبا ، وحييت بعد ذلك حياة مستقرة هائلة هائلة ٠٠ فما بت
ليلة على الطوى ، وما استلقيت مرة على قارعة الطريق ارتجف من
البرد دون أن يستر جسدى سوى خرق بالية ٠

أجل ٠٠ عندما أفكر فى أولئك الذين يتالمون ويتعذبون ٠٠ أولئك
المساكين الذين شردتهم الحياة فهاموا على وجوههم ٠٠ أولئك الذين
أهلكهم البؤس وأضنتهم المسغبة ٠٠ الذين لم يروا فى دنياهم حسنة
ولا أحسوا متعة ٠٠ عندما أفكر فى اليتامى الذين روعتهم وحشة
الحياة ، والذين عاشوا فيها غرباء لم يرو نفوسهم الصادية عطف
ولا سقى قلوبهم الظامئة حب ولا حنان ٠ عندما أفكر فى أولئك
الضالين الذين أدمى شوك الضلال نفوسهم ، وأحرق جمر الرذيلة
قلوبهم ، الذين لم يذوقوا قط حلاوة الايمان ولا لذة اليقين ٠

عندما أفكر فى كل هؤلاء ، وعندما أقارن نفسى بأولئك الذين
يستشهدون فى سبيل الله وفى سبيل أوطانهم ، أولئك الذين يضحون
بأنفسهم لكى يهيئوا لغيرهم حياة أفضل ٠٠ عندما أقارن نفسى بهم
وأقارن تضحيتى بتضحيتهم أجدنى قد تضللت وأجدها قد تضللت
٠٠ حتى أحس أنتى لم أفعل شيئا ٠



وصمت المرأة ورأيت المرح قد عاد الى وجهها مرة أخرى ، ومع
ذلك فقد أحسست الحزن يعلأ نفسى ٠ وأكبرت فيها تضحيتها ثم

انكارها التضحية ، ووجدتني أشعر باللوعة رغم انها قد حاولت أن
تبدو راضية قانعة ، وتظهر أنها لم تفعل شيئا .

ونظرت اليها ، والى شعرها الأبيض ووجهها الذى ملأته
التجاعيد ، وتذكرت الجمرة التى وهبت لن حولها دفعا وهداية ثم
خمدت فأضحت رمادا فى رماد .

★ ★ ★

وسكت صاحبي ، فقد انتهت قصته .

ولكننى وجدت كهلا كان يجلس بجوارنا ، وكان قد سمع القصة
من أولها الى آخرها ورأيته يدنو منا وأخذ يقول لصاحبي :

– لشد ما أخطأت الظن يا سيدي ، أن المرأة التى ذكرت قصتها
ليست رمادا ، ولن تكون قط رمادا . . . اتعرف الجمرة التى يكسوها
الرماد وما زال جوفها مضيئا مشتعلا ؟ انها جمرة من ذلك النوع . .
يفخيل للناظر اليها أنها رماد ، وما زال النور يضيء نفسها ، والحرارة
تدفيء قلبها .

وصمت الرجل ، ثم أشار الى نفسه وقال :

– الرماد هنا . . الرماد هو ذلك الجسد الذى لم يستطع الصبر .
ولم يحتمل التضحية . . ومل الانتظار . . فترك حبيبة العمر وأقبل
على أخرى . . ماتت بعد فترة من الزمان . . ورأى نفسه يسير بعد
ذلك وحيدا . . كالنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى
لقد كان الرجل هو صاحب المرأة الذى هجرها !
أجل . . لقد كان هو . . الرماد . . !

امرأة وظلال

ما فتن الانسان شيء فى هذه الحياة كالظلال ، واعنى بالظلال ،
ظلال الحقائق التى يمر بها المرء ، فتسعده أو تشقيه ، وتضحكه
أو تبكيه .. ثم يطويها الزمن فى مره ، وتناى بها الأيام فى كرها ..
فلا يعود يبصر منها الا ظلالا داكنة خلفتها تلك الحقائق بعد ان نأى
بها الزمن .

ينظر المرء الى هذه الظلال فيحس منها بمتعة ، ويفتنه مراها
كما لم تفتنه الحقائق نفسها التى خلفت هذه الظلال .



وانى لأعرف نوعا من الناس ، قد لا اكون مخطئا اذا سميتهم
هواة ظلال ، وعشاق تذكريات ، فهم يعيشون دائما فيما مضى وما
غير .. لا يكادون يحسون بحاضرهم الا اذا طوته الأيام فأصبح
ماضيا ، ولا يشعرون بالمتعة الا بعد أن تصبح تذكرى ، ولا يحسون
بلهفة على مباشرة المتع .. ولكن يحسون بلهفة على العيش فى
ظلالها .. واغلب ظنى أن هذه المرأة التى سارد قصتها هى واحدة
من هذا النوع الذى نسعيه : هواة الظلال .

كان الوقت قبيل الغروب ، وقد مالت الشمس نحو الافق ،
وارسلت أشعتها على الأوراق الصغيرة المتكاثفة ، والزهور الحمراء
التي كست أشجار البانسيانس الممتدة على الطريق القائم على إحدى
ضفتي النيل فى الجزيرة ٠٠ فبدت الأشجار كأنها رؤوس براكين
مشتعلة .

وفى إحدى الحجرات المظلة على الطريق ٠٠ تسلكت الأشعة
الحمراء من بين أوراق شجرة قائمة أمام الدار وتفتت من خلال
النافذة الواسعة ، فصبغت الحجرة بلون أرجوانى ، وسقطت ظلال
الأوراق على أرض الحجرة وعلى جدرانها وأثاثها ٠٠ وقد بدت فى
سكونها ولونها الداكن ، كأنما قد رسمتها ريشة فنان ، لولا ذلك
الاهتزاز الخفيف الذى تبديه عندما تهب على الأوراق نسمة هادئة
من أنفاس الصيف الناعمة الرقيقة .

وعلى أحد المقاعد جلست امرأة ٠٠ ما زال يبدو عليها الكثير
من جمال الصبا ونضارة الشباب ٠٠ وقد مدت ساقها ، ومالت
برأسها الى الوراء ، وسبح بصرها فى الأفق البعيد ٠٠ وبدا وجهها
من خلال الظلال التى تسلكت من النافذة ، وقد علت لهلعة من أسى ،
ومسحة من حزن واكتئاب ٠٠ وامسكت بين أصابعها بقطعة من
الصوف وابرتين طويلتين ، ثم تركت يديها تسقطان فى حجرها فى
كسل واسترخاء ٠٠

واخذت المرأة تستعيد فى ذهنها ما حدث منذ لحظات ، وتذكرت
كيف تركت تلك المتعة التى كانت تغلف عليها ، تتسرب من بين
أصابعها ٠٠ واكتفت منها بذكرى باهتة تعيش فى ظلالها ، لأنها
تعودت حياة الظلال

تذكرت كيف فاجأها بدخوله عليها ، وكيف أنبأها فى صوت
هامس متلف أن امراته قد ماتت ٠٠ لقد تركها مشدوهة مأخوذة ٠٠

فهى لم تكن تتوقع قط أن يعود اليها ولا أن يخبرها أنه قد اضحى حرا طليقا .. وبدا وجهها شاحبا وسقطت يداها على ساقيهها ولم تنبس ببنت شفة .

وأمسك الرجل بيديها بين راحتيه . ثم قال لها فى رفق :

— لم لا تتكلمين ؟ لم هذا الذهول ؟ ترى هل فاجأتك ؟

— وأى مفاجأة !!

— كان يجب على أن أكتب اليك ، ولكنى لم أستطع الانتظار ، ولم أكن أفكر فى شيء سوى المجيء اليك ، فقد كنت أبصر بك بعين الوهم جالسة فى مقعدك هذا ، وقد بدا وجهك من خلال الظلال تماما كما يبدو الآن .

ونظرت اليه بعين تائهة ، وذهنها ما زال فى شروده وذهوله ، وحاولت أن تتمالك مشاعرها ، وقالت فى هدوء :

— أجل . لقد فاجأتنى عودتك . كما يفاجأ كل امرئ بيبصر بالظلال تتجسم فتعود مرة أخرى حقائق ملموسة . لقد عودت نفسى حياة الوحدة فتعودتها واطمأنت اليها ، وطردت من مخيلتى كل أمل فى عودتك ، وبدأت أشعر بالهدوء والاستقرار .

واقترب منها الرجل وأمسك بوجهها بين كفيه .. وتأمله برهة .. ثم اقترب بشفتيه من شفتيها ، وضغط عليهما ضغطا خفيفا .. ونظر الى عينيها فلم يجد بهما تلك اللفهة المعهودة .. ولم يحس فيهما ذلك الشوق الذى كان ينتظر .. وأحس بالخيبة تملأ نفسه .. أهذه هى القبلية التى كان يحلم بها طوال تلك المدة !

وترك وجهها فى سكون ، وعاد فجلس على مقعد قبالتها .. وساد الصمت برهة .. وتحديث المرأة لتقطع ذلك الصمت فسأله فى غير إكتراث :

— أكان مرضها طويلا ؟

— عشرة أيام .

ثم أردف في صوت يشويه اليأس :

— كنت أظن أن عودتي ستسعدك .. وأنت ستلقينني بأحر شوق
وأشد لهفة .

ونظرت المرأة الى الظلال التي تتراقص على أرض الحجر وقالت
في صوت هامس كأنما تحدث نفسها :

— انى لا أطمع فى أكثر مما حصلت عليه .. انى قانعة راضية
.. فعندما تعطينا الحياة زهورها يجب أن نكتفى منها بعبيرها
والنظر إليها ، ونتركها بتعدد دون أن نحاول قطفها .. فيبقى عطرها
وسحرها فى رؤوسنا مدى الحياة لأن قطفها ان لم يدم أيدينا فسيرينا
هذه الزهور ذابلة بعد برهة قصيرة ، ويرينا أوراقها تتساقط فى
الثرى وتختلط بأديم الأرض ، ولا نعود نبصر فيما بعد ذلك سحرا
ولا روعة .. أجل .. عندما نبصر أجمل ما فى الحياة فان خير
ما نفعله هو أن نقنع بالثكرى .

ورفع الرجل وجهه وهز رأسه متسائلا :

— أوتظنين حقا أننا قد ابصرنا أجمل ما فى الحياة ؟

وصمتت المرأة برهة ، وسبحت ببصرها من خلال النافذة وأجابته
كالحالة :

— أجمل ما فى الحياة ؟ ! وأى شيء هناك أجمل من لقائنا أول مرة ؟
وأحس الرجل بنشوة .. لقد بدأ هو الآخر يندفع الى حياة
الظلال !! ووجد نفسه يقول وقد أثملته الذكرى :

— انى لأذكر ذلك اللقاء كأنما حدث بالأمس فقط .. وأنى لاكاد
أبصر وجهك كما ابصره الآن .. ما تغير فيه شيء ولا تبدل .. فانت
انت فتاة الأمس .. امرأة اليوم .. حتى هذه الظلال التى بدا وجهك
من خلالها .. هى هى .. يا لك من امرأة عجيبة ! لقد كانت الظلال

تستهويك دائما • لقد كانت تفتنك وتفتن الناس • كم كنت رائعا
عندما وقع بصري عليك أول مرة ، وقد بدا وجهك مبسوتا مشرقا ،
من بين أوراق الذرة العريضة الخضراء ، التي ألفت ظلالها الداكنة
حول وجهك فزادت في إشراقه حتى لكانه بدر قد أطل من خلال السحب
القاتمة ، فأشرق في دياجير « ليل قاتم الأعماق طام » • وأبصرت
في عينيك تلك النظرات الحاملة المستسلمة ، ورأيت شفتيك الممتلئتين
في اغراء وفتنة ، المضمومتين في لين ونضارة •

وعرتني اذ ذاك هزة ، وانتفضت « كما انتفض العصفور بلله
القطر » • وثقلت لنفسى : انها هي •• لقد وجدت بها أخيرا ، حبيبة
العمر التي أعياني البحث عنها وأضناني الشوق اليها •• واندفعت
اليك في حمق طائش •• وأمطرتك وابلا من الأسئلة : من تكونين •
ومن أين ، والى أين •• وعلمت أنك قد أتيت لزيارة عمك في ضيعته
•• وعدت معك الى القاهرة في اليوم التالي رغم أنى لم أنجز شيئا
مما أتيت من أجله •• ومنذ ذلك اليوم وحياتى قد مسها سحر بدل
كل ما فيها وقلبها رأسا على عقب •

لقد شعرت وقتذاك انى لن أستطيع الحياة بدونك •• لقد وجدت
فيك قطرات الماء التي يصادفها ضال قد شفه الظلم في صحراء
جرداء وأنهكه العدو وراء سراب خداع خلاب ، ومع ذلك فلم أكد أمد
يدى الى تلك القطرات لأروى منها غلتى حتى وجدتني مقيدا مكمما •
أجل لقد كان ثمة حمل يثقل كاهلى وينقبض ظهري •

كنت متزوجا •• وعلم الله انها ما أسعدتنى مرة واحدة ••
ولكنه كان زواج مال •• وما كنت راغبا في مال ولا ثروة ، ولكنى
كنت صغيرا وقتذاك •• وكان أبى يراها فرصة العمر • وانتهت
المسألة في لمح البصر ، ولم أحس حينذاك أنها ستكون قيда ثقيلا ،
ولم أحاول أن انظر الى الأمر نظرة جادة •

ومرت بى الأيام ثقيلة مملّة ، وبدأت أبحث خارج الدار عن مرفهات ومسلّيات ، من تلك الأنواع الخفية التى يمكن للانسان مباشرتها دون أن تصاب حياته الزوجية بصدع ، أو تحطيم ، حتى صادفتك ، وأذا بى أمام ملاك نسيج وحده .. أجل لقد كنت شيئا آخر جديدا لم أصادف مثله من قبل .

وفى ذات يوم عزمّت على أن أكون حاسما فى أمرى .. فجابتهنا بالواقع .. وكنت نصريحا معها كل الصراحة .. وسألتها الانفصال .. فقد كان ذلك خيرا لى ولها .. ولكنى رايت فى عينيها نظرة حزينة .. واجابتنى فى سكوت أنها حامل .. وأحسست أن اجابتهنا سكين مزق قلبى .. وتركتها دون أن أحيّر جوابا .. ولم أحاول أن أطلب منها الانفصال بعد ذلك ، ولكنى أحس الآن إننى كنت أحمق وقتذاك .. ولو تكرر الأمر الآن لأصررت على الانفصال .. ولتركتها تذهب هى وطفلها الى حيث ألقت .. أجل انى أشعر أنى لم أعد بعد ذلك المثل الذى حاولت أن أكون .. ان تلك الصغور التى نصطنع بها فى طريق الحياة تجعلنا أكثر صلابة وخشونة .

وصمت الرجل وساد سكوت عميق قطعته المرأة بقولها :

- وكيف حال ابنك ؟

- ابنى ؟ انه لم يكن ابنى فى يوم ما . لقد كان ابنها منذ أن خرج الى هذه الحياة . لقد علمته كيف يكرهنى . ولذلك لم أكن أهتم به كثيرا لأنك كنت تملئين جوانحى وتشغلين كل قلبى ورأسى ..

- ولم لم تحاول الانفصال وقتئذ ؟

- لقد حاولت ذلك مرة أخرى ، ولكنى علمت حينذاك أنك تزوجت ، فتملكنى اليأس . ولم أجد معنى لذلك الانفصال وخاصة أنها كانت تقوم بواجبها نحو بيتها كما يجب ، وأنها بدأت أيضا تكف عن تلك المشاحنات التى كانت تثيرها من أجلك . على أى حال لقد انتهى

كل ذلك الآن .. وأصبح كلانا حرا طليقا . فهلا يمكننا أن نساعد
بتلك البقية الباقية من حياتنا ؟

ولم تجب المرأة بل نظرت الى تلك الظلال المتراقصة على أرض
الحجرة .. ثم تمتعت :

— من ناحيتى أنا .. لقد تعودت العيش فى الظلال .. ولا أظننى
أستحق أكثر من ذلك .. فقد سرقت رجلا من امرأته .. أو على
الأصح سرقت حبه .

— لا تكونى حمقاء .. انها لم تستطع لحظة واحدة أن تملكه ..
انه لم يكن لها فى يوم من الأيام .. ولو لم تسرقه أنت لسرقه غيرك
.. لقد كان زواجنا زلة الأيام .

— دائما نلوم الأيام ونتهم الحياة ونحن احق باللوم والالتهام
» نعيب زماننا والعيب فينا « .. أجل ان العيب فينا والخطأ خطؤنا
.. أتذكر ذلك اليوم الذى تزوجت أنا فيه .. لو كان لدى الخلق
المتين والشجاعة الكافية التى تمكننى من المضى فى طريقى حتى
النهاية .. لما اقدمت على ذلك الزواج قط - انى لم أكن أحبه ، وإذا
لم تحب المرأة فخير لها الا تتزوج .. وليتنى كنت لا أحبه فقط بل
كنت أحب سواه . لقد كان خير أنواع الرجال ، وكنت أحترمه وأقدره
.. بل انى شعرت بفجعة لفقده ، وأحسست بالفزع والوحدة تشملنى
بعد موته . ولكنى مع ذلك لم أكن أحبه ، وكنا نبدو سعيدين فى
الظاهر ولكنه لم يكن سعيدا قط فى باطنه ، اذ لم أستطع أن أعطيه
الشئ الذى يطلبه ، وكان كلانا يعلم ذلك ، ولكننا لم نتحدث عنه
قط . لقد كان خير ما يصلح له فى نظرى هو أن يكون وسيلة
للنسيان .. ولذا كنت أحس اننى جبان وأنى أحاول أن أشرك معى
فى حمل أعبائى مخلوقا لا نذب له .. كان يجب على أن أحمل حبنى
فى قلبى وأسير فى طريقى بشجاعة لا تخيفنى معها الوحدة

... أجل ! •

— فى ظلمة الليل حيث لا ظلال تتعلقين بأهدابها ، وفى أيام الشتاء
حيث الأوراق متساقطة والشمس غائبة ؟

وهمست المرأة الأخيرة : « أجل .. أجل » •

وغادر الرجل الحجرة وسمعت وقع قدميه يبتعد فى الطريق ..
ثم ساد الصمت وعم السكون .. وهبت نسمة خفيفة من أنفاس
الصيف الهادئة .. فحركت أوراق البانسيانس .. فبدأت الظلال
تهتز وتتراقص ، وتغدو وتروح •

وبدا وجه المرأة من خلال الظلال ، وقد كست عينيها سحابة من
دموع •

يا للمرأة العجيبة .. أتراها .حقا لم ترد أن تنتزع الأب من ابنه
.. كما نزع الزوج من زوجته ؟ أم تراها حقاً قد أحست أن الابن
أولى بالرجل منها ، وأنه يجب أن يكون له وحده ؟
أم تراها من هواة الظلال .. وعشاق الذكريات !

امراة غيرى

هذه قصة روتها لى امراة منذ عشرات السنين .. امراة غيرى ..
كلت الغيرة قلبها فعاشرت فى نضال دائم وخوف مستمر .

★ ★ ★

حدثتنى المرأة قالت :

- دعنى أجول بك خلال الماضى البعيد والأيام النائية .. فأريك
كيف كنت واياها طفلتين عابثتين لاهيتين . لا نكاد نفترق الا ساعة
تأوى كل منا الى فراشها .

كنا ابنتى عم . وكانت دورنا متجاورة .. وشببنا فى الحياة
كؤختين .. وكان لنا ابن عم آخر يقاربنا فى السن ، وكنا نتقابل
جميعا فى الصيف حيث نتخذ من رمال الشاطئء مرتعا للهو . ومن
ظهر الموج مطية للعب والروح .

وأنت تعلم با سيدى ، أن العائلات التى بينها مثل هذا التقارب
والتحاب تحاول دائما أن تربط بين أبنائها بالزواج وهم ما زالوا
فى دور الطفولة ، ولو كان ذلك من باب المزاح . وهكذا نشأنا ونحن
نسمع من آبائنا وأمهاتنا أن ابن عمى سيتزوج من ابنة عمى .

وكننت طفلة لا أكاد أقيم للمسألة وزنا ، وكننت لا احسن أن ابن عمى يرى لاحدانا فضلا على الأخرى ٠٠ كنا فى نظره سواء ما دمننا نشاركه لهود ولعبه . وعلى ذلك فلم يكن يهمنى قط أن يقولوا عنه انه زوجها أو زوجى ٠ ومرت السنون ، واستمر الأمر كذلك حتى كنا ذات صيف ٠٠ صيف يحمل فى طياته تبديلا لكل ما بأنفسنا ٠٠ صيف نقلنا من عالم الى عالم . ومن حياة الى حياة ٠٠ صيف حمل لنا فى حرارته الأنوثة ، وحمل له الفتوة والشباب فالتقى ثلاثتنا ، لا طفلتان وصبى ٠٠ بل غتاتان وشاب ٠

ولست أدرك ما حل بنفسى وقتذاك ، فقد اعترانى ما يعترى كل فتاة عندما تتحول من طفلة الى امرأة ٠٠ من تطور فى الجسد والعقل والقلب والتفكير ٠ ولست أريد أن أسهب فى شرح ذلك التطور ، ولكنى فقط أريد أن أشرح من ناحية معينة ، وهى ما حدث من تبدل فى نظرتى الى ابن عمى وفى احساسى نحوه ٠

ولست أشك أن كل ما حدث بى من تطور قد تركز فى تلك الناحية وأنه قد اتخذها مظهرا واضحا جليا ٠

هذا الصبى اللاهى العايب الذى كنت أعدو خلفه لأقذفه بالحصى وأغمره بالمياه ، والذى كان يمسكنى بين ذراعيه أو يجذبنى من شعرى فيلقى بى على الأرض . ويجلس فوقى بيديه وركبتيه ٠٠ دون أن تتحرك فى جارحة ٠٠ هذا الصبى الذى لم أك أرى فيه الا زميل لعب ٠٠ والذى لم أك أعبا قط أن يقال عنه أنه زوج ابنة عمى أو زوج أبة كائنة من كانت ، أتدرى كيف أصبحت أراه ؟

عجبا لنا ٠٠ كيف تتبدل فى أعيننا المراتب بين أونة وأخرى ، ونراها فكأننا نبصر أشياء أخرى غير التى تعودنا أن نبصرها ٠ نراها فنبهت من سناها ونؤخذ من اشراقها وكأننا ما رأيناها من

قبل ، وما تبدلت هي . ولكن تبدلت نفوسنا .. وما أشرقت هي
ولكن سرى من نفوسنا اليها ضياء غمرها .
ما ذاك الجفاء الذي أصبحت أحسه نحو ابنة عمى والكراهة الذى
يجيش فى صدرى لها ؟
أكان ذلك لأنهم يقولون عنها انها ستضحى زوجته ؟
هذا القول الذى سمعته من قبل مئات المرات . فما حرك فى
قلبي ساكننا ، وما أثار من نفسى اهتماما .
هذا القول قد أضحى الآن يعتصر قلبي اعتصارا .
لقد كنت اذا ما ضم ثلاثتنا مجلس - أنا وهى وهو - لا أكاد أرفع
عنه عنه بصرى ، وكان هو لا يكاد يرفع عنها بصره .
كنت أنصت اليه .. وكان هو ينصت اليها .
لقد كنت لا أحس الا وجوده ، وكان هو لا يحس الا وجودها
أما عن احساسها نحوه فأننى لم أستطع أن أجزم به .
ولم أكن أستطيع أن أتبين من تصرفاتها وتعبير وجهها : مدى
ما تكنه من حب .. فقد كانت تتحدث معه كما تتحدث مع سواء ..
فهى دائما لطيفة المعشر حلوة الحديث ، ولكنها على أية حال لم تكن
قطعا مدلهة فى هواه ، كما كان مدلهة فى هواها ، أو كما كنت مدلهة
فى هواه .
وإنكر أنها قالت لى ذات ليلة « انى استلطفه » ولكن هل يكفى
الاستلطف أن يكون باعثا على الزواج ، أم لا بد من الحب ؟ ..
ولم أجيبها ، وأن كانت كل جارحة فى تكاد تصيح « بل لا بد من الحب
.. الحب الذى يضطرم فى صدرى ويتأجج بين جوانحي » .
ومرت الأيام وأنا أكافح حبي .. أحاول أن أخمد فلا يخذ
حتى وقعت الواقعة ، وتمت الخطبة ، وتحدد الزواج بعد بضعة
أشهر .

أى يأس عصيف بنفسى وقتذاك ؟ لقد كنت وما زلت أمل ، رغم أنه لم يكن هناك وجه للأمل ، وكنت أعلل نفسى ، وأقول لها من يدري ؟ قد ترفض هى ، فأنها ليست واثقة من أنها تحبه ، ولكن عندما تمت الخطبة ، نرت البريح هشيم أملى ، وأحسست بيأس مميت •
 أه لو أستطيع الفرار ! أن كل ما حولى موحش كئيب ، ولكن ممن أفر ؟ ونفسى هى العلة ، وقلبى هو الداء •• كم يتمنى الانسان فى تلك الأوقات أن يفر من نفسه !

ولكنى كنت أعلم أنه لا سبيل الى الفرار ، فهزيمة القلب لا علاج لها ! الصبر والاحتمال •• ويجب أن ننتظر حتى يبرئ الزمن داءنا •

أجل ، يا سيدى • ما كان أمامى الا التذرع بالصبر ومحاولة النسيان •

ومرت أيام الخطبة وهو يبدو سعيداً هائناً كاسعد ما يكون انسان تحققت أحلامه •• وبلغ أمانيه •

أما هى •• فما كانت قط كذلك ، لقد كان بها شيء من الشرود •• وكأن هناك ما يشغل ذهنها ، أو كأنها حائرة تائهة لا تستقر نفسها على قرار •

وفى ذات يوم ذهبت لزيارتها ودلفت الى حجرتها فوجدتها تبكى ، وفوجئت بوجودى ، وكفكت دمعها وأنباتنى أنها متعبة الأعصاب ، ولا شيء أكثر من ذلك •• ولكننى كنت أعلم سبب بكائها •• أنا وحدى التى أستطيع أن أعلم •• أنها لا تحبه •

وأنا يا سيدى •• أنا التى كنت أتمنى لو أدمى قدمى شوك القتاد ، وأحرق جسدى جمر الغضى •• حتى أصل اليه لأفتديه بعمرى ، كنت لا أجسر أن أقول انى أحبه •••

يا للتناقض العجيب ! لقد كانت تذرف دمع عينيها لأنها ستزوجه

بينما كنت أبكى بدم قلبي لأنى محرومة منه • فلا هى تجسر أن تقول انها لا تحبه ، ولا أنا أجرو أن أقول انى احبه •

ومضى اسبوع وكنت أجلس ذات صباح فى حديقة الدار عندما لمحتة يقبل على وقد بدت على أساريره مسحة هم وائى وكان فى مشيته بطء وتثاقل كأنه ينوء بعبء أثقل ظهره • وجلس قبالتى وأحسست بضربات قلبي تشتد وبأنفاسى تتلاحق •

وسادت فترة صمت كان هو يحق خلالها أمامه فى ذهول وشروء ، دون أن ينظر الى ، وأخيرا قال :

— انى أريد منك معروفا لن أنساه مدى الحياة •

ولم اتكلم • فقد كانت كل جارحة فى تكاد تنطق « ليت لى فوق الضنى ما أوجعك » •

وانبأتى بصوت خفيض بائس أن الخطية قد فسخت لأنها تقول انها قد تسرعت فى الأمر • وسألنى باعتبارى صديقة لها أن أحاول التأثير عليها وردها الى وعيها فلا شك أن كل ما بها ليس الا نوبة طيش •

وحاولت أن أخفف لوعته فقلت له انى سأفعل جهدى

رحماك ربي •• ! أنا التى أبذل جهدى حتى أردى اليه ! أنا التى ما تمنيت شيئا قدر أن أبعدى عنه ! ولكن ما الفائدة فى أن تبعد هى وهو ما زال متعلقا بها ، وما الفائدة فى أن أوصل فى حبه وهو لا يرى منى الا واسطة أقربها اليه •

وعلى ذلك فقد حاولت جهدى أن أقربه اليها وأن أعيد المياه الى مجاريها • أو هذا على الأقل ما صممت عليه • ولكنها لم تنجح لى الفرصة فلقد سافرت فى اليوم التالى مع أبيها وتركتها فى يأسه وفى لوعته • ولم يجد هو سوى ملجأ يلجأ اليه ليبتئى أحزانه وليحدثنى عنها وعن حبه لها • فلقد كنت خير صديقة لها وله •

ومرت الأيام وأنا صابرة محتملة ، حتى أحسست أنه قد أخذ يرتاح الى ٠ وأن قرحته قد أخذت تبرأ ، وجرحه يندمل ، وقل حديثه عنها رويدا رويدا ، وشعرت أنه قد أقبل على ، وليس أسهل على المرأة التي تحب من أن تميز أن صاحبها بدأ يعنى بها ، من مجرد أشياء تافهة خفية قد لا يستطيع سواها أن يحس بها كتلك النظرات الدافئة التي تحس بها اذا ما التقت الأبصار فجأة ، أو تلك الرقة في الصوت اذا ما تحدث معها أو نطق باسمها ٠

ولست أستطيع أن اذكر تفاصيل تلك الفترة التي انتقلت فيها من اليأس المظلم ، الى الأمل البراق ٠٠ والتي أحسست فيها أن المعجزة قد حدثت ٠٠ والتي وجدتني فيها قد أصبحت محبوبة لمن بنفسى لهفة على الفناء فيه ٠٠ لست اذكر التفاصيل قط ٠٠ فلقد كنت في نشوة ٠٠ أو في حلم ٠٠ كنت أكتف أنفاسي حتى أظل في غفلة من الزمن ، وكنت أغعض عيني ، حتى لا أصحو من حلمي الجميل ٠ وأخيرا سألني الزواج فوافقت ووافق الأهل ، ولم يطل الأمر حتى كان كل شيء قد أعد ٠

وعادت ابنة عمي من سفرها لتجدنا على وشك الزواج ٠ وأقبلت على تهنئتي بحرارة ، ولكني أحسست منها برعدة ٠٠ وانتابني منها خوف شديد ٠٠ أجل ٠٠ لشد ما كنت أخشى أن يعاوده داء حبها ، وأن تنزع مني مرة ثانية ٠٠ وحاولت جهدي تجنبها والتهرب منها ٠

وتم الزواج ، وضمني واياها بيت واحد ٠٠ ترقرف عليه السعادة كأنما هو عش في الفردوس ٠٠ وتمنيت أن أقبع فيه ، لا أزور ولا أزار ، ومرت بي الأيام وأنا سعيدة هائلة ٠

ولم يك هناك بد - ونحن اهل واصدقاء - من أن نتزاور وأن يرى

بعضنا بعضا اذ لم يكن هناك معنى للقطيعة ، وان كنت انا اتمناها
من صميم قلبي حتى انائى بزوجى عنها .

وكنت احاول جهدى ان اخفى ما بنفسى عندما نلقاها . ولكن
بيخيل لى اننى لم استطع . فقد قال لى زوجى ذات مرة عقب
انصرافها من زيارتنا : « لقد كنت جافة معها جدا » .

— انها هى التى كانت جافة .

— انها دائما رقيقة مهيبة .

— طبعاً . . . « حسن فى كل عين من تود » .

— ماذا تقصدين ؟

— سل نفسك .

وانصرفت الى حجرتى وغصفت بى نوبة من البكاء .

ومنذ ذلك اليوم واننا لا اكف عن اتهامه بانه ما زال يحن اليها ،
وان الأيام لم تنتزع من قلبه حبه الغابر . وكان يحاول دائما ان
يقنعنى بخطأ ظنى . . تارة باللفظ واللين ، وتارة بالسخط والغضب
. . ولكن عبثا كان يحاول . . فقد كان سوس الغيرة ينخر فى قلبى ،
وينهش صدرى ، فجعلت من حياته جحيما لا يطاق .

واخيرا تزوجت هى . . واحسست الاطمئنان يعاودنى . وهدأت
غيرتى بعض الهدوء . وظننت ان زواجها سيبيدها عن طريقى الى
الأبد ، ولكننى كنت مخطئة . . فقد نشأت بين زوجها وزوجى صداقة
متينة ، وكثر بيننا التزاور عن ذى قبل .

وعاودنى دائئى القديم . . الغيرة القتالة . . التى تجعلنى أحل
كل نظرة عابرة وكل كلمة تافهة ، حتى أضحت حياتنا لا تطاق .
وحملت هى . . فزادت نيران الغيرة فى قلبى تاجعا . اذ لم أحمل
أنا رغم مضى سنتين على زواجى .

وفى يوم وضعها . . كانت تساور نفسى أمنية شريرة ، فلقد بلغت

بى الغيرة جدا بت معه أتمنى موتها ٠٠ أجل ٠٠ لقد كان موتها هو
الشئ الوحيد الذى يعيد الى سعادتى المفقودة وينزع من صدرى تلك
الغيرة المدمرة التى تجعل من حياتى ظلمة دائمة ٠

لم يكن يخطر ببالي قط أن أمنيتى الشريرة هذه يمكن أن تصبح
حقيقة واقعة ، حتى دخل على زوجى فى ذلك اليوم وقد بدا وجهه
قاتما متجهنا وأنبأنى فى صوت كالأنين أنها ماتت بعد أن وضعت
طفلة ٠

وكان النبأ مروعا ، وصدمنى صدمة قاسية ، رغم أننى كنت منذ
لحظات أعتبره أمنية عزيزة ٠٠ واندفعت أبكى فى مرارة ، وأفقت من
بكائى لأجده هو الآخر يبكى ٠٠ ولأجد الشيطان قد عاد يوسوس
فى صدرى ويحاول أن يدفع فى نفسى الغيرة من بكائه ٠٠ ولكنى
دفعته عنى إذ لم أكن من الجنون بحيث أستسلم للغيرة من امرأة ميتة
لم تزل دماؤها ساخنة فى عروقها ٠

وخفت حدة حزنى بعبء الشئ ، وتسلسلت بدله الى نفسى تلك
الفرحة الخفية الشريرة الناتجة عن شعورى بأننى تخلصت نهائيا
من غريمة طالما أقضت مضجعى وحرمتنى الراحة والهدوء ٠

ومر أسبوع وأسبوعان ، وشهر وشهران ، وسنة وسنتان ٠
ترى هل استعدت هنائى بعد أن ذهبت غريمتى ؟ ترى هل كفتت
عن اثاره تلك المشاحنات التى طالما انفصت على زوجى حياته ٠٠
بعد أن ذهبت مسبباتها ؟

كلا يا سيدى ٠ كلا ٠ لقد تأصل الداء فى نفسى وأصبح مزمنًا -
ليتها ما ماتت ٠٠ فلقد كنت وقتذاك أناضل امرأة حية ، أما
الآن فلا أناضل سوى أشباح وأرواح ٠

ليتها ما ماتت ٠ فلقد جعل موتها حبه لها حقيقة واقعة ٠٠ بعد
أن كان وهما يساور نفسى ٠٠ أجل يا سيدى لقد نكا موتها قرحه

وادمى جرحه ، فلقد فاجأته ذات مرة وقد أكب على صورة لها يبيلها
 بدمعه ٠ ورأيته مرات يزور قبرها لينثر عليه الزهور والدموع ٠
 ليتها ما ماتت يا سيدى فلقد كنت واياها سواء أمام الزمن أما
 الآن فقد كف الزمن عنها ، فلم يعد له سلطان عليها ، وستبقى
 صورتها فى ذهن زوجى وفى قلبه فتية لا تشيخ ، ناضرة لا تذبل ،
 مضيئة لا تخبو ولا تنطفىء ٠٠ أما أنا فلقد سخر منى الزمن ، ففى
 كل يوم له فى شعرى وفى وجهى علامات وأثار ٠
 ان الغيرة تعصف بنفسى ، ولكن ممن ؟ من امرأة ميتة ! ولقد ضاق
 بى زوجى فأهملنى وأضحى لا يحس وجودى ولولا ذلك الولد الذى
 أنجبه لهجرنى منذ زمن طويل ٠٠ ان عزائى فى ولدى يا سيدى ٠٠
 هذه القصة سمعتها من المرأة منذ عشرات السنين . وكدت أنساها
 لولا أنى لقيتها منذ بضعة أيام ، محطمة مهدمة . تعيش فى دارها
 وحيدة ليس هناك من يؤنس وحشتها ، وسألت عن زوجها فعلمت
 أن غريمها قد سلبتها إياه نهائيا ٠٠ فلقد لحق بها الى السماء ٠
 وسألت عن ابنها ٠٠ عزائها الوحيد ٠٠ فعلمت أنه قد تزوج وترك
 الدار ٠٠ اتعلمون من سلبته ؟ انها الابنة التى تركتها غريمها . فقد
 سرقت الأم الأب ، وسرقت الابنة الابن ٠
 وبقيت المرأة الغيرى ذابلة ذاوية ٠٠ كأنها عود يابس ٠٠ أو ورق
 جف « فأودى به الصبا والدبور » ٠٠٠

امراة ضالة

حدثتني المرأة الضالة قالت :

— انا حقا امراة ضالة ؟ .. ام امراة شاذة ؟ لو قسنا ما اكون
حسب ما يعنيه الشذوذ ، فاني بلا جدال امراة شاذة ! قالشذوذ هو
أن ينفرد المرء بفعل ما لا يتعوده الناس وأن يأتي بما لم يألفوه ..
واني لذلك ، فما اتيت امرا الا اثار فيهم الدهشة وبعث الاستنكار .
ولكن يخيّل الى اننى لو كنت رجلا لما اتهمنى أحد بالضلال أو
الشذوذ فكل ما فعلته واستنكره الناس لا يزيد عني يبيحه الرجال
لأنفسهم دون أن يتهمهم أحد بما اتهمت به .

★ ★ ★

أجل يا سيدي .. ان كل ما ساقصه عليك من أفعالي الشاذة
لو نسبته الى رجل ، لما كان قط رجلا شاذا .. ولكنى قد خلقت
امراة ، وامراة ظماى شائرة ! وحرمت تلك القدرة على التخفى
والتستر التى توهب للنساء لكى يستترن شرورهن ، ثم دفع بى الى
الحياة .. فلم أستطع أن اكون الا امراة ضالة !

ما ذنبى يا سيدى وأنا لم أخلق نفسى ؟
 ما ذنبى وأنا أحس بظمأ دائم الى الحب وتعطش دائم الى
 الرجال ؟ ٠٠ ما ذنبى وأنا لا أجد من نفسى رادعا يردعنى عن ارواء
 ظمئى واشباع نهيمى ؟ ٠٠ ما ذنبى وأنا لم أحس قط بخجل أو حياء ؟
 منذ أن وعيت الحياة ، وأنا كذلك ، مفرقة فى الضلال ممعنة فى
 الشذوذ ٠٠ دعنى أذكر لك كيف كنت صبية فى المدرسة ، وكنت
 ألعب التنس مع زميلاتى ، وكان مدربنا وقتذاك فتى أعرج لا أظن
 الله قد خلق أقبح منه ولا أشوه . ولكنه كان الرجل الوحيد الذى
 أستطيع الاتصال به . هل تدرى ماذا كنت أفعل ؟ لقد كنت أرجو
 رئيسة الفريق أن تجعل دورى فى اللعب فى النهاية حتى تنصرف
 البنات فأخلو الى الفتى .

وأكثر من ذلك ٠٠ تصور أننى كنت - وأنا فتاة - أقفز من سور
 المدرسة فى العشر دقائق التى للراحة بين الحصص لألقى صاحبى
 ولأمتع نفسى بملقاته فى هذه البرهة القصيرة .

وفى ذات مرة أقامت المدرسة حفلا خيريا كبيرا وكان على أن
 أقوم فيه بدور قارئة الكف . وكان ذلك سببا فى رفتى من المدرسة ٠٠
 أتدرى لم ؟ ٠٠ اسمع السبب كما روته ادارة المدرسة وقتذاك .
 لقد كان يتحتم على الفتاة التى هى « أنا » أن تجلس فى حجرة
 مغلقة ويدخل اليها من يريد قراءة كفه ، ويدفع ما يوجد به ، وتأخذ
 هى فى قراءة كفه لمدة لا تزيد على عشر دقائق ، ثم يدخل غيره
 وغيره

ودخل فتى وسيم ، ومضت عشر دقائق دون أن يخرج . ربيع
 ساعة ٠٠ نصف ساعة ٠٠ والفتى قابع فى الغرفة ، ودهشت احدى
 المشرفات على الحفلة ٠٠ واقتربت من الباب لتفتحه حتى ترى ماذا
 يمكن أن يكون قد حدث بالغرفة ، فاذا بالباب مغلق من الداخل

بالمفتاح .. وطرقت الباب طرقا شديدا ففتح الباب وخرج الفتى .
 هذا هو سبب رفتى يا سيدى . لقد أعجبني الفتى فاستمتعت به
 .. هذا هو كل ذنبى .. أترانى أستحق الرفق ؟ .. أترى فى عملى
 هذا شذوذا ؟ .. أترى فى فعلتى ضلالا ؟
 على أية حال هذه كلها حوادث طفولة تافهة . دعنا منها ،
 ولنتجاوزها الى ما هو أهم ، الى صميم حياتى كامرأة ناضجة
 مكتملة .

لا اظننى فى حاجة الى ان أصف لك نفسى ، فأنت أدرى بى ..
 ولا اظنك مهما حاولت أن تحط من قيمتى من حيث الخلق والطباع
 الا منصفاي من حيث الفتنة والجمال ! قل عنى جرثومة شر ،
 قل عنى حيوانة ! قل ما تشاء .. فانك لن تستطيع يقولك ان تطفئ
 بريق الافتتان المنبعث من آلاف الأعين المتطلعة الى ، ولن تستطيع
 أن تخفت همسات الاعجاب التى تلهج بها القلوب قبل اللسان : قل
 ما تشاء فليس قولك بضائر انوثتى المتدفقة ولا فتنتى الفياضة ! قل
 ما تشاء فان قولك سيذهب هباء امام نضج صدرى واستقامة جسدى
 وامتلأ ساقى ! قل ما تشاء ، ولكن لا تقل انى غير مغرية ولا جذابة
 فانى ألح فى عينيك مبلغ لهفتك على .. ورغبتك فى .

انا جميلة ومغرورة ، وجمالى يضاعف غرورى ، وغرورى
 يضاعف فى نظرى جمالى ، وهكذا أصبحت احس اننى استطيع من
 قرط ثقتى بنفسى أن افوز فى أية معركة ، وأن أصرع أى رجل ، وأن
 أسلب أى حبيب من حبيبته وأى زوج من زوجته .
 وبهذا الشعور ، وبذلك الأمنية بدأت أخوض غمار الحياة مسلحة
 بأقوى أسلحة المرأة : الجمال ، والثقة ، والرغبة الكامنة ، لا فى
 الحصول على الرجل ، بل فى سلبه من امرأة أخرى حتى احس بلذة
 التفوق والانتصار ، يعزز كل هذه الأسلحة شعور بالاستهتار وتحلل

من الخجل أو حتى خشية العواقب .. بهذا كله بدأت دورى فى الحياة
كأمرأة .

والتقيت به .. زوجى الاول .. فتى متزوج .. وافر الثراء .
واندفعت فى حبه .. اذ لم يكن أسهل عندى من الاندفاع فى الحب .
ولم يطل به الأمر حتى سقط صريع هواى ، وسرعان ما اقتنصته من
زوجته .

وعارض أهلى الزواج ، فضربت بهم عرض الحائط .. وقررت
مع زوجى . أنكرونى وتبرأوا منى .. ماذا يضيرنى منهم ما دمت
بين أحضان الرجل الذى أريده وأعشقه !

مر شهر .. وشهران .. وثلاثة .. وأنا أنعم بلذة الهوى
والانتصار .. حياتى مثالية .. كل ما أطلبه بين أناملى وتحت
قدمى ، لو كان معى خاتم سليمان لما استطعت الحصول منه على
أكثر مما حصلت عليه .

ومع ذلك فقد مرت الايام بعد ذلك تحمل فى طياتها الضجر وتبعث
فى نفسى - شيئا فشيئا - الملل والسآمة .. لقد بدأ الحب يتطاير
ويتبدل وخيمت على نفسى سحب الكآبة ، وأصبحت حياتى راكدة
أسنة ، وأنا لم أعتد قط الركود ولا السكون ، انى أريد المغامرة .
أريد حبا جديدا وانتصارا جديدا فقد انطقت جذوة الحب الاول -
وخبت بارقة الانتصار السابق .

ولكننى زوجة .. وسأصبح كذلك أما ، ويجب أن أكون زوجة
صالحة وأما طيبة .. ويجب أن اقنع بزوجى ، وأكن فى عقر دارى ،
وأن أكبح جماح ذلك الشيطان الذى يحاول أن ينطلق من نفسى .
لا .. لا .. أنا لم أخلق قط لذلك .. هذا الجمال ، وتلك الفتنة
ليس مكانهما الدار . هذه النفس الثائرة الفائرة لا يمكن أن يكبح لها
جماح ، أو يستقر لها قرار .. هذه النفس لا تقيم وزنا لنواميس

الحياة ، او قوانين الزواج .. وهذه النفس التى لا تمل ولا تستحى
ولا تخشى أية عاقبة : لا بد لها ان تنطلق لتنهب من اللذات جهدها .
وهكذا محوت من نفسى أى شعور بقيود الزوجية .. واندفعت
كعادتى باحثة عن عشاق ومعجيين .. الهو بهم ويلهون بى .
ولقد كانوا كثيرين ، متزوجين وغير متزوجين ، أنتقل من واحد
الى آخر ، كالنحلة تنطلق من زهرة الى زهرة ، حتى صادفنى أحدهم
واستطاع ان يجذبنى أكثر من أى رجل آخر .
وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين زوجى .. كما توثقت عرى
المحبة بينه وبينى . وفى ذات يوم سافر زوجى الى ضيعته فخلا لنا
الجو .

وأتى الى الفتى صبيحة سفره ثم صبحنى الى داره وهناك
أخذنا نلهو حتى حان وقت الغداء فتناولناه .. وأحسست بعد الغداء
باسترخاء وخمول .. وحركت حرارة الجو وقبيلات الفتى ..
الشیطان الكامن فى نفسى .
وضمنا الفراش .. وبدأت أنعم بلذة الاثم .. لذة جارفة قوية ..
ودهش الفتى من سرعة استسلامى .. فالنساء فى هذه الحالات
رغم رغبتهن فى الاستسلام - يظهرن التمتع والتدلل .. ولكنى لم
أكن كذلك ! لقد كنت فى جراحة رغباتى أشبه بالرجل .

وانسقت مع صاحبتنا فى دنيا من الهوى والمجون لم تدم أكثر
من ثلاثة أشهر حتى بدأت أمله ، أمله كما مللت سواء ، ولكنه لم
يعلمنى ، بل كانت رغبته فى ازدياد .. وحاولت صدّه وأفهامه أننى
لا أستطيع ان أحب رجلاً أكثر من ثلاثة أشهر فلم يقتنع .
ومرت الأيام والفتى يزداد بى جنونا وأنا أزداد منه نفورا ..
حتى أنبأ زوجى ذات يوم بكل ما بيننا وطلب منه أن يطلقنى حتى
يتزوجنى هو .. وثار زوجى ثورة .. سرعان ما عرفت كيف

أخضعها . واسترضيته فرضي ، واستغفرته فغفر ، وبمرور الزمن
يئس الفتى من حبي فنسيني كما نسينته *

واسدل الستار على هذا الحب .. ولكن لم تكن لي طاقة على
ذلك . بل اندفعت في حب جديد .. حب يا سيدي لم يكن كسابقه ،
ولم يكن لهوا ولا عبثا .. بل كان حبا حقيقيا ، ملك على مشاعري ..
وعصف بنفسي عصفا شديدا *

أجل يا سيدي ! لقد عرفت الحب لأول مرة .. الحب الذي
يجعلنا نعلق بشخص معين لا نكاد نبصر سواه *

ولست أدري أكانت هي الرغبة الشريرة التي تدفعني الى أن
أسلب الزوجات أزواجهن . هي نفسها التي دفعتني الى ذلك الحب ..
أم كان ذلك مجرد قضاء وقدر .. فلقد كان الرجل الذي عشقته زوجا
وكانت زوجته صديقة حميمة لي *

وطبعاً لم أتورع في حبي .. فأنا - كما قلت لك - امرأة لا تضجل
ولا تحسن حتى ولو لم يدفعها سوى الرغبة في اللهو .. فما بالك
وقد أضحي يدفعها حب جارف وهوى عنيف !

لقد أحببت زوج صاحبتى ، واندفعت في حبه دون موارد
ولا استتار .. حتى ما بقى هناك مخلوق لا يعرف أننا عاشقان *

وبدأت أصاب بحالة أشبه بالجنون .. حالة دفعتني الى أن أثور
على زوجي وأن أبكي أمامه طالبة منه أن يطلقني ، معترفة له بأنني
أحب صاحبي وصاحبه أيضاً .. ثم اندفعت محاولة الانتحار
فتناولت زجاجة من الأقراص المنومة *

وأخيراً ، يا سيدي ، طلقني زوجي بعد أن مرت بي أيام عصيبة
كادت تودي بي الى الموت وتقضي بي الى الجنون *

وطلق صاحبي زوجته ، وتحرر كلانا من كل قيد وأضحت الحياة
أمامنا باسمه مزدهرة .. وتزوجنا بعد بضعة أشهر .. وشهدت

الاسكندرية وشاطئ سيدي بشر منا أروع مناظر الغرام ، وأبدع لوحات الحب ، ورأى منا « الرومانس » ما لم يره من عاشقين قبلنا .. حتى بتنا مضرب الأمثال ..

أنا الآن يا سيدي زوجة لذلك الذي همت به .. وجنت من أجله .. الرجل الذي نزعته من زوجته ونزعني من زوجي ، لقد أضحي ملك يدي .. لا شريك لي فيه .. أنا يا سيدي امرأة سعيدة .. أحس بأن حياتي قد استقرت ، وأنني لم أعد أطمع في شيء .. ولا أشكو من شيء .. فقط .. شيء واحد أريد أن أهمس به .. أن زوجي يضيق على الخناق .. أنه يخشى أن يلدغ من الجحر الذي لدغ منه سابقه .. أنه يريد ألا يقلت زمامي من يده ، فهو لا يفارقني لحظة واحدة .. فإذا كشفت ساقاي أشار على بأن أسترحما ، وإذا طلبت منه أن أزور ابني أمرني بأن يأتي هو الي ، وأنا يا سيدي لم أعود تلك القيود .. اني لا أستطيع أن اتنفس في جو قد خلا من المعجبين والعشاق وكم أخشى أن أختنق أو أنفجر مرة واحدة ، فاثور على الرجل الذي أحببته .. والفظه كما لفظت الذين من قبله .

آه يا سيدي .. كم أخشى من نفسي الضالة المكبوتة المكبوحة الى متى أستطيع امتلاك زمام نفسي ؟

★ ★ ★

عزيزتي ... المرأة الضالة .

الى هنا تنتهي اعترافاتك .. فانت تدوين أن تلك هي نهاية قصتك حتى وقتنا هذا .. ولكن القراء ناقدون فهم لن يرضوا بهذه النهاية .. ولن يقبلوا مني تلك الخاتمة ، فانا أدري بهم ، هل تسمحين ان اشارك القدر فاتمم قصتك ؟ وأختم اعترافاتك ؟

ايها القراء .. اليكم البقية مني عن لسان المرأة الضالة .

★ ★ ★

لقد أفلت الزمام يا سيدى .. لقد أصابنى الضيق وتطرق الى
 الملأ : .. أريد الانطلاق من ذلك الأسر .. أريد الفرار من ذلك السجن
 .. لقد تبخر الحب من نفسى وتطاير كالهشيم تذروه الرياح .. انى
 لا اصلح قط أن أكون زوجة .
 بدأت اعود الى سابق عهدى .. الى الانطلاق والحرية ،
 والعشاق والمعجبين ، ولقد مل زوجى فانطلق هو الآخر الى ملاذه
 ومتعاته .

مرت الايام والأشهر والسنون ، أنهك السهر جسدى ، وحطمت
 الملاذ قوائى .. وبدأت أحس بالذبول والنحول ، وتسلسل الشيب الى
 شعرى .. وتسربت التجاعيد الى بشرتى النضرة الصافية .
 هجرنى زوجى ، وتفرق من حولى المعجبون والعشاق .. انتى
 أحس بالفراغ والوحدة والوحشة .. أما من عشاق ! أما من
 معجبين ! كم أحس بالحنين اليهم واللهفة عليهم .

وفى ذات يوم أنبأتنى صاحبة لى أنها على موعد مع بعض العشاق
 من الشبان فذهبت معها وقفزت الى العربية الأنيقة التى وقفت
 تنتظرنا .. نظرت الى الفتية الثلاثة الذين جلسوا فى العربية فاذا
 بأحدهم ، من تظنه يكون ؟ من هو ؟

لقد كان ابنى ! ..

أه يا سيدى ! أية طعنة سددها القدر فأدمت قلبى ومزقت
 حشاى ؟ .. لقد انطلق ابنى يسوق العربية .. وأحسست من اضطرابه
 أنه قد عرفنى ... ولم أتكلم ... ولم يتكلم ... ولكن كانت كل
 جارحة فينا تكاد تنطق !

كم كنت أود لو انشقت الأرض فابتلعتنى فى جوفها .. لأتخلص
 من هذا المأزق .. واستجاب الله دعائى ، فقد رايت عجلة القيادة

تضطرب فى يده • ثم أحسست بالعربة تندفع فى جنون •• ولم
أحس بعد ذلك شيئا •

وافقت فإذا بى فى أحد المستشفيات •• وشعرت بأنى فى النزاع
الأخير ، وأن لحظائى فى الحياة معدودات ، وسألت عن ولدى فقيل
انه مات •• متى ينعم الله على بالموت أنا الأخرى ؟



ولقد كان الله كريما فأنعم عليها بما طلبت •
أيتها المرأة الضالة •••

لا تحزنى على نفسك يا سبيتى • ولا تحنقى لهذه الخاتمة
القاسية • فما ابتغيت بها الا ارضاء القراء ، وأعذرينى فان
ارضاءهم يحتاج الى شئ من التهويل والتهويل •• ولو أننى أشك
كثيرا فى أن القدر سيهديك خاتمة خيرا منها •• والأيام بيننا •••

امراة شكلى

جلست اليها منصتا مصفيا ، وساد المكان سكوت اصيحنا من
فرطه نكاد نسمع انفاسنا تتردد ٠٠ ورنوت اليها فلمحت فى عينيها
بريقا وفى وجهها اشراقا ٠٠ بريق ايمان واشراق طمأنينة ٠٠ وشدت
من الهواء نفسا طويلا أخرجه بعد برهة فى زفرة هادئة ٠٠ ثم
أراحت ظهرها على مسند المقعد وشخصت ببصرها فى الفراغ
البعيد ٠٠ وبدأت تقص على قصتها ، كأنما تستوحىها من تلك
الفراغ .



يقولون ان « الأذن تعشق قبل العين أحيانا » ٠٠ وازيد على قولهم
ان الذهن قد يعشق قبل الأذن وقبل العين ، ولقد كان ذلك هو طريق
عشقى له وحبنى أياه .

كنت اقرأ له كل ما يكتب ٠٠ ويخيل الى ان كلمة « اقرأ » ٠٠
لا تعبر تماما عما أعنيه ٠٠ فهى بالنسبة لما أعنيه كلمة سطحية
عامة ٠٠ ليس بها ذلك العمق أو الحرارة التى أريد أن أعبر عنها ٠٠
اذ لا شك أنه شتان بين أن يقرأ المرء جرائد الصباح ٠٠ بما فيها

أسعار البورصة ، وتنقلات الوزراء ، وبين ما كنت أفعله عند ما كان
يقع بصرى على احدى قصصه أو قصائده .

هل تدرى الفارق بين قرقرة اللب ، وبين اقبال نهم محروم على
مائدة رصت عليها أشهى أنواع الطعام ؟ . هل تدرك الفارق بين
جلوسك الى شخص يقدم لك النصائح والمواعظ ، وبين جلوسك الى
حبيب يذيقك لقاءه ؟ لقد كان هو الفارق بين ما تعنيه القراءة العادية
بالنسبة الى . . وبين ما تعنيه قراءتى لكل ما يكتب . . كل ما يكتب
بلا استثناء !

كنت اتتبع كتابته فى الصحف والمجلات . وعندما كنت أعثر على
شئ من كتبه . . لم أكن أقرأه لأول وهلة ، بل كنت أحتفظ به فترة
من الوقت ، فقد كنت أحس فى الاحتفاظ به لذة البخيل تصل الى يده
الدراهم فيأبى صرفها ، رغم أن صرفها قد يعود عليه بلذة كبرى . .
أو لذة المحروم يحصل على نوع من الفاكهة الثمينة ، فيتمتع بأبقائها
معه برهة قبل أن يأكلها .

ولم أكن أقرأها بعد ذلك الا حينما أخلو الى نفسى ، وأستريح
فى جلستى أو فى رقتى ثم أبدأ بتذوقها . . أو احتسائها رشفة
رشفة . . وقطرة قطرة . . شاعرة أنها قد حملتنى الى عالم آخر . .
عالم نسجه هو ورفعنى اليه .

كنت أحس فى تلك اللحظات أنى أحيأ معه ، بين السطور وبين
الكلمات . . دون أن يحس هو بى . . وكنت أشعر أننى ألقاه وأن
كان هو لا يلقانى .

وهكذا يا سيدى عشقه ذهنى قبل أن تحس به أية جارحة فى
نفسى . . ولا شك أن عشقى له وقتذاك كان نوعا عجيبا من العشق . .
نوعا يقوم كله على التصور والوهم . . وعلى القناعة والزهد . .
فقد كنت لا أعرف من يكون ، ولم تكن لدى أية فكرة عن شكله أو

عمره ٠٠ اكان شابا ام كهلا ٠٠ اعزب ام متزوجا ٠٠ قبيحا ام
وسيعا ٠٠ كل هذا لم اك ادرى عنه شيئا ، فما رايت له صورة قط ،
ومع ذلك فقد كنت ارسـم له فى ذهنى صورة ٠٠ هى خليط من ابطال
قصصه ٠٠ صورة رجل مجرب عركته التجارب وحنكته الايام ٠٠
قد لاقى فى حياته ما اضغله وجعله يشع بذلك الاشعاع من النبوغ
فان كتابته لا شك تريد لما صادفته نفسه ٠

وهكذا يبدو لك مدى ما كان فى حبى من تصور وهم ٠ اما ما كان
فيه من قناعة وزهد فقد كان مبعثه اننى اعشق شخصا لا يحس بى ٠٠
ولا امل لى فيه ٠٠ فلا اظننى كنت الا واحدة من الالف قرائه والمعجبين
بكتاباته ٠٠ ولا اظن انه كان هناك اى احتمال للقاء بينى وبينه ،
وحتى لو صح هذا الاحتمال ٠٠ فما اظننى كنت اتوقع ان اناك شيئا
من اهتمامه او احظى بقليل من التفاته ٠

وفى ذات مرة قرأت له قصة لست اُنكر عنوانها بالضبط ولكنى
اُنكر أنه قد ختمها بسؤاله القراء عن رأيهم فى مصير بطلة القصة ٠٠
وترددت بين أن اكتب له أو لا اكتب ٠٠ فدافع يدفعنى الى الكتابة
والى أن انتهن الفرصة لأعبر له عن اعجابى به واحساسى نحوه ٠٠
ودافع يردعنى لأن كتابى اليه لن يكون سوى واحدا من مئات أو آلاف
٠٠ وقد لا يقرؤه ٠٠ أو قد يقرؤه ٠٠ ولا يكون نصيبه منه الا
السخرية ٠

وأخيرا كتبت ٠٠ فبلاهة العشاق تتغلب غالبا على حكمتهم ٠٠
وهل ترك العشق للعشاق حكمة ؟

كتبت اليه ٠٠ لأشئ الا لأنى كنت احس بلذة فى الكتابة ،
وكانت رسالتى طويلة الى الحد الذى لم أشك بعد أن ارسلتها اليه ،
انه لن يقرأها فما اظن لديه من الوقت ما يضيعه فى قراءة عبث
القراء ؟

ومر يوم ويومان ، وأسبوع وأسبوعان .. وأخيرا حمل الى
البريد خطابا .. يحمل ظرفه خطا غريبا لا أعرفه .. وقضضته
ووقع بصرى على الامضاء فى نهايته ، فاذا به منه .

وكما تعودت أن أفعل بكل كتبه ، طويت الخطاب دون أن أقرأه .
لا أظنك يا سيدى يمكن أن تتصور المتعة التى أحسست بها عندما
وقع برى على امضائه الذى كتبه بخط يده .. لقد كانت أكثر متعة
لى فى الحياة هى أن أقرأ شيئا كتبه ، كتبه للناس عامة .. دون أن
يحس أنى واحدة من هؤلاء الناس .. فما بالك وقد كتب الى وحدى
.. كتب الى خطابا لا يعنى به سوى ولا يشاركنى فيه أحد !

وأخيرا أقبل الليل ، وضمنى الفراش ، فأخرجت الخطاب بهرص ،
كأنى عابدة تتبيل وتتعبد .. وأخذت أقرؤه ببطء وتأن ، كأنى أتنزه
بين السطور . أو أتنسم عبير الكلمات .. حتى أتيت على آخره ،
وهل كان له آخر ؟ أبدا والله ، فقد كنت أصل الى النهاية لأعود الى
البداية .. ثم أطويه برهة ، لأعيد نشره بعد ثوان .. لقد قراته ما يقرب
من الخمسين مرة .. ولم لا أقول لك انى قد حفظته عن ظهر قلب !

ماذا كان بالخطاب ؟ .. لا شيء .. لا شيء أبدا يستدعى ذلك
الفرح وتلك المتعة .. ولكنك تعلم أن العشاق مجانين وأنهم يجعلون
من « حبة » الحبيب « قبة » مليئة بأكداس النعيم .. لقد كان الخطاب
لا يحوى أكثر من بضع كلمات شكر رقيقة متواضعة .. وبضع كلمات
أعجاب بردى الذى كتبه له ، وبضع كلمات - على سبيل المجاملة -
بيانه يسره أن اكتب اليه دائما .

وكاية عاشقة حمقاء .. بلهاء .. كتبت اليه مرة أخرى .. كتبت
اليه أسأله رأيه فى بضعة أبيات من الشعر ، كنت قد كتبتها وتجرات
على نشرها فى إحدى المجلات .. وما زالت ذاكرتى تعى منها
بعضها .. وهى :

لو تجد لى بوصول بعد ما غبت سئينا
 للهونا فى نسينم الليل قرب الياسمين
 اه لو تذكر ما مر لرجعت الانينا
 كم هذا القلب اليك وان كنت ضئينا

وحمل الى البريد رده للمرة الثانية ٠٠ ينبئننى فيه باعجابه
 بشعرى ، ويصفه بالركة ٠٠ ولست أعلم اكان اعجابه اعجابا حقا ،
 ام أنه كان مجرد مجاملة ؟ على اية حال ٠٠ لم يكن أسهل على وقتذاك
 من ان أقنع نفسى أنه اعجاب حقيقى .

وكتبت اليه مرة أخرى أسأله ان يتفضل على بصورة -
 وأقول الحق ، انى ترددت كثيرا قبل ان اطلبها فقد كنت أخشى
 ان تلطيح صورته الحقيقية ٠٠ بالصورة التى رسمتها له فى ذهنى
 وأن يصرع قبح الحقيقة جمال الخيال ٠٠ أجل ٠٠ كنت أخشى ان
 تكشف الصورة خدعة أو هامى وأحلامى .

ومع ذلك فقد طلبتها منه ، ولم يرفض هو فقد حمل البريد الى
 خطابه الثالث وبه بعض الثقل ٠٠ وأحسست باضطراب شديد كأننى
 على وشك ان القاه ٠٠ ولم أفتح الخطاب ، بل أخفيته كأنى سارقة ٠٠
 أو كما يخفى المحتاج نقودا عثر عليها فى قارعة الطريق . خشية
 ان يبصره أحد المارة فينتزعها منه .

واستطعت ان أصبر حتى ضمنى المضجع ٠٠ وفتحت الخطاب ،
 وأخرجت الصورة .

وأصابتنى ان ذاك دهشة ٠٠ وأخذت أسائل نفسى : أحقا هذا
 هو ؟ لا أظن ! لا يمكن .

كانت الصورة لفتى تشيع فى وجهه ضحكة مرحة ٠٠ تبدد من
 حولها هموم الحياة ٠٠ وجه ليس به اثر لتجارب أو حنكة ، بل
 كل ما فيه اشراق وضياء وأمل مزدهر .

ورأيت الحقيقة قد كشفت خدعة الخيال .. ولكنها كشفتها الى
ما هو خير وافضل .. وأدركت أن الأوهام والأحلام رغم قدرتها
على التحسين .. لم تستطع أن تستيق في هذه المرة .. الحقيقة
الواقعة .

وتراسلنا بعد ذلك بضع مرات ، حتى كتب الى ذات مرة يقول :
« كيف أنت ؟ أخشى أن أسالك صورتك .. فتبدد تلك الصورة التي
أرسمها لك في رأسي .. فهل أجرو على سؤالك أياها ؟ أم اكتفى
بصورة الأوهام .. خبريني ما رأيك ؟ » .

ولقد قضيت طيلة يومي ، أتأمل كل ما لدي من صور .. وأسائل
نفسى : ترى أية صورة يرسمها في ذهنه ؟ .. هل تخذلني صورتي
لو أرسلتها له .. لقد كنت حائرة في تقدير نصيبي من الجمال .
ورغم أنني كنت أحس أنني جميلة .. فقد كنت أعلم أيضا أنه ما من
امراة لا تحس أنها جميلة ، وما من انسان يستطيع أن يرى قبحه .
مرت الأيام - وأنا - مترددة يتغلب على الجبن .. حتى رأيت
الظروف العجيبة تضع حدا لحيرتى ، بطريقة لم أكن أنتظرها قط .
أتدري كيف ؟ .. لقد لمقيته وجها لوجه .

ولم يصعب على أن أدرك - بفريزة المرأة - أن مرأى لم يخذله ،
على النقيض ، لقد أحسست أنني قد صرعت صورة أوهامه ، وأنى-
قد هزمتها شر هزيمة .

لا تسألنى كيف عرفت ذلك ، فليس أسهل على المرأة ، وخصوصا
العاشقة ، من أن تدرك من مجرد نظرة تسرى بين الأعين .. أنها
ذات قيمة .. وذات موضوع .. لقد أقبل على فى سرور ولهفة ..
عندما عرف أنني أنا .. ولم أكن بالطبع أقل منه شوقا ولا لهفة ..
ولم نكن قط فى حاجة الى تلك الشكليات التى تحدث عادة بين اثنين
يلتقيان لأول مرة ، فقد كنا نحس أن بيننا قديم معرفة وسابق لقاء .

وتحدثنا كثيرا ٠٠ وافترقنا ٠٠ وبى نشوة السكارى ٠٠ ولم أكن
أصدق اننى لقيته وتحدثت اليه ، وأنه خصنى وحدى دون سائر
الفتيات باقباله واهتمامه ٠٠ وكيف أصدق ٠٠ وأنا ما كنت أجرو
أن أجعل من هذا مجرد أمنية ؟

وتكرر اللقاء بيننا بعد ذلك ٠٠٠ وفى كل مرة كنت ألقاه ٠٠ كنت
أحس أن حبه يزداد نفاذا الى نفسى ٠٠ أو على الأصح ٠٠ كنت أحس
أن حبه قد تطور فأضحى شيئا جديدا ٠

لقد كنت أحبه بذهنى ٠٠ فأصبحت أحب بقلبى وبكل جارحة فى
نفسى ٠٠ لقد كنت أعشق كتابته فأصبحت أعشق كل شىء فيه ٠

لقد كان يا سيدى يستحق الحب ! ٠٠ كنت أجلس اليه فأجده
مخلوقا لطيفا رقيقا جم التواضع ، وهو الذى لو ملأه الغرور لغفرت
له غروره ، فقد كان خير عباد الله كلهم ٠٠ اهذا هو الذى أظنه
ذا تجارب وحنكة ؟ ٠ اهذا هو الذى كتب مئات القصص عن الحب
والعشاق ، والذى كان يحلل نفوسهم تحليلا لا يستطيعه الا رجل خبر
أمور الغرام وشؤون الهوى ؟ ٠

لقد كان يجلس الى وكأنه تلميذ عاشق ٠٠ وكان لا يسعده قدر أن
أعطيه يدى ليأخذها برفق بين يديه ٠٠ ويظل يحدثنى حديثه الطلى
الضاحك الذى يغمرنى فى نشوة ممتعة ٠

لا أطيل عليك الحديث يا سيدى ٠٠ لقد ظللنا نمرح فى مرعى
الهوى ٠٠ حتى سألنى مطلبيا كنت أتوق اليه وأحلم به ، لقد سألنى
الزواج ٠

٠ وتمت الخطبة ، ومرت أيام الخطبة حلوة لذيدة ٠

وأخيرا تحقق الحلم الأكبر ٠٠ فتم الزواج ٠

لا أظن هناك سعادة يا سيدى يمكن أن تعادل سعادة امرأة تجد
الرجل الذى أفتت نفسها فى حبه ، أضحى ملكها ٠٠ ملكها وحدها ٠٠

لا شريك لها فيه ٠٠ هي التي تطعمه ، هي التي تعد له ثيابه ، وهي التي تهيب له راحته ، وهي وحدها التي ترتدى فى أحضانه فيدللها وتدله ٠٠ كأنها طفلة وكانه طفلها ٠٠ أى احساس أجمل من أن تحس المرأة أنها قد أضحت تملك الرجل الذى تحبه وأنه قد أضحى يملكها ٠

لقد كنت أجلس على أريكة أمامه ٠٠ ويدأى منمكتان فى عمل صديرى له من الصوف ، وعينائى تتأملانه وقد جلس على مكتبه وانهمك فى الكتابة ٠٠ فشرذ بى الذهن ٠٠ واتصور الأيام التى كنت لا أجد فيها متعة أكثر من التسلل بقصصه وقصائده وكتبه الى مضجعى فأخلو بها الى نفسى ٠٠ وأظلم أرتشف منها وأحتسى ٠٠ كان هو وقتذاك حلما فى رأسى ٠٠ وخيالا يساور نفسى ٠٠٠ وكان بالنسبة الى لا يزيد عن أبطال الخرافات ٠٠ كيف مر الزمن فأضحى زوجى ؟

هل كان يخطر لى على بال وقتذاك أنه سيأتى يوم أجلس أمامه هكذا لأرمقه وهو يكتب ٠

وتتملكنى اذ ذاك نشوة ٠٠ وتغمرنى فرحة ، فأجد نفسى قد قمت من مكانى ٠٠ يدفعنى دافع لا أستطيع مقاومته ٠٠ فأقترب منه وهو منهمك فى الكتابة واتحسس شعره برفق ٠٠ فيرفع الى رأسه مبتسما وتلتقى شفقتنا فى قبلة رقيقة ٠٠ ثم أعود الى مكانى قريرة العين ٠ والواقع يا سيدى أننى لم أكن مبالغة فى احساسى بالسعادة معه ٠٠ فانه لم يخذلنى قط ٠٠ فأنت تعلم دائما أن الانسان يخذله الواقع ٠ وانه دائما يصور لنفسه أحلاما براقة ، فلا يكاد يحصل عليها حتى تضحي حقائق معتمة ٠٠ ولكن لم يكن كذلك قط ٠٠ أتذكر كيف رأيت صورته فوجدتها خيرا مائة مرة مما كنت أتصور ؟ ٠ لقد كان الحال معه كذلك دائما ٠٠ أجل ! فكما رأيت صورته خيرا

مما كنت أتخيله ، رأيت شكله خيرا من صورته ، فلما أضحيينا عاشقة وعاشقا رأيت قلبه أجمل من شكله ، وباطنه أحسن من ظاهره ٠٠ فلما تزوجنا - والزواج يكشف الانسان على حقيقته الخفية الكامنة - وجدته انسانا مثاليا ، ووجدت حقيقته المجردة ، لا عيب فيها ولا هنة ٠

ماذا تريد الزوجة أكثر من رجل محب ، رقيق ، عطوف هادئ الطبع ، قليل الغضب ، كثير المرح ، لا يحمل هما ٠٠ ولا يجعلها تحمل هي هما ٠٠ يعطيها كل حقها ، ولا يطلب منها الا ما تعطى ٠٠ لا يعرف الخمر ولا يعرف الميسر ؟

لقد كان هو ذلك الرجل ٠ هل كنت مبالغة في احساسى بذلك القدر من السعادة بين احضانه ؟

وكنا نهىء فى دارنا الصغيرة كل ما نستطيع من متعة ٠٠ فلم نكن فى حاجة الى زوار لتسليتنا ٠ وكان كل منا يشارك الآخر فى عمله ٠٠ فكان لا يرسل القصة أو القصيدة للنشر الا اذا قرأها لى وأخذ رأيى فيها ٠٠ وكان كثيرا ما يدخل عليها تعديلات كنت أقترحها عليه . وكنا دائما نشترك فى تنسيق الحديقة . كما كنا نشترك فى كل شىء آخر ٠

وكانت خير وسيلة لتسليتنا هى جهاز صغير لتسجيل الصوت وملء الأسطوانات ٠٠ وكان قد أهدى له من أحد أصدقائه عند زواجنا ٠٠ فكنا نجد متعة كبرى فى تسجيل قصائده عليها ، وكنت أنا التى أقوم بتسجيلها عليه اذ كان يرى أن صوتى جميل فى الالتقاء ، وكنت أجد لذة فى ذلك . وأذكر أن أول أسطوانة ملأتها له هى أول قصيدة نظمها عندما كان طالبا بالمدارس الثانوية ولقد كان مطلعها

يا أيها الرامى المسدد من عيونك بالشهب
تدمى قلوب العاشقين بلا نبال أو لهب
وكان أكثر ما يطربه فى أوقات فراغه هو أن يستعيد سماع تلك
الأسطوانات .

ومرت بى الأيام هادئة ناعمة . . وزادت سعادتنا عندما أحسست
ببوانس حمل .

ووضعت طفلا شديدا الشبه بأبيه ، وكانت ولادته عسيرة بعض
الشيء . . ولكن الله سلم العاقبة .

أنت أب يا سيدى . . وتعرف أية بهجة يخلعها الأطفال على
البيوت . . انى ما كنت أعرف حكمة قوله تعالى : « المال والبنون
زينة الحياة الدنيا » حتى رزقنا بذلك الطفل .

لقد كنت أسائل نفسى وأنا أضمه الى صدرى كيف كنت أعتبر
الحياة قبل أن أنجبه .

ولست أكتك القول أنه خفف بعض الشيء من اهتمامى بأبيه ،
ولست أعنى بكلمة اهتمامى « حبى » فان حبى لأبيه لم يكن يستطيع
أن ينال منه مخلوق . . بل أقصد بالاهتمام تلك اللهفة وذلك التدليل
الذى كنت أغرقه به . وقد يكون هو أحس بذلك ولكنه لم يتضايق .
فقد كان ذلك هو الحال بالنسبة اليه أيضا إذ كان الطفل يشغل منه
كل فراغه . . وكان لا يمل من قضاء الساعات الطويلة فى تدليله
وتسليته .

وكان أكثر ما يزعجنا هو تلك الأمراض الطارئة التى تطرأ على
الأطفال كالاسهال والتسنين .

ومرت الأشهر . . ولا تسل عن فرحتنا عندما بدأ يحبو ثم يسير
ثم يتلفظ بعض الألفاظ ك : « بابا . . وماما » . لقد أخذنا من فرط
فرحتنا نسجل له الأسطوانات التى لا تسمع منها أكثر من كلمات

متفرقة لا معنى لها ٠٠ ولكنها كانت تمرربنا أكثر من أعذب الألحان
وأجمل الموسيقى ٠

وقررنا أن نملأ له أسطوانة كل شهر ٠٠ ونحتفظ بها لكى نهديها
اليه عندما يصبح رجلا ٠٠ لأنها ستكون أجمل ذكرى ٠

ومر بنا عام وثان وثالث ٠٠ وشب الطفل محوطا بكل وسائل
العناية والرعاية ٠٠ ولم يكن أحب الى أبيه من أن يأخذه بين
أحضانة ٠٠ ويقص عليه القصص ٠

وكم كان يضحكنى أن أرى أباه ٠٠ الكاتب العبرى الذى طالما
هز المشاعر بقصصه الرائعة وأشعاره الرقيقة وقد رقد بجوار الطفل
يقص عليه سخافات تضحك الثكلى والصغير مصبغ اليه بكل جوارحه
يستعيد ويصحح له الوقائع تارة أخرى ٠

وكم مرت ليالى الشتاء الحلوة وقد جلس ثلاثتنا أمام المدفأة
وأخذت أشوى لهما « أبو فروة » وهما يزدردانه الواحدة بعد الأخرى
وقد انهمك الأب فى قصة الفار المهندار والفارة النقارة ٠

ويصل الى سمعى صوت الأب مسترسلا فى حكايته : « ثم أسقطت
الفأرة ذيلها فى صفيحة العسل » ٠

ويقاطععه صوت الصغير قائلا فى اهتمام : « صفيحة السمن
يا بابا » ٠

ويراجع الأب نفسه ويقول معتبرا : أجل ٠٠ أجل ٠٠ وضعت
ذيلها فى صفيحة السمن ٠

وتنقضى الساعات الطوال ، الأب يحكى والابن يستمع ٠ لا هذا
يكل من الكلام ٠٠ ولا ذاك يعمل من السمع ٠٠ حتى يروح الصغير فى
غفوة فيحمله فى رفق الى فراشه ٠

ومر عامان آخران وذهب الطفل الى المدرسة ، وكنا ما زلنا على

عهدنا فى ملء الاسطوانات ٠٠ وأضحى يسجل فيها الأناشيد التى
يلقونها اياه فى روضة الأطفال كقطتى الصغيرة .
وحاول أبوه أن يلقيه أشعاره لكى يسجلها له ٠٠ وأخذ يضع
له أراجيز بسيطة حتى يستطيع قراءتها والقاءها .

★ ★ ★ .

وصممت محدثتى لحظة ٠٠ ومدت يدها الى كوب من الماء تجرعت
منه نصفه ٠٠ وبدا عليها كأن الحديث قد أجهدا واعتذلت فى مقعدها
لتغير جلستها . ثم انطلقت تتم قصتها قائلة :
وفى ذات ليلة لا تزال صورتها منقوشة فى مخيلتى . ولا أظنها
ستمحى منها أيد الدهر ٠٠ ولقد كانت الليلة الأخيرة فى شهر رمضان
والبيت يفيض بالمرح والسعادة .

ولست أظنك يا سيدى الا مدركا فرحة الأطفال وابتهاجهم بليلة
رمضان الأخيرة ٠٠ ليلة العيد السعيد ٠٠ وهم يودعون مصابيحهم
الملونة ٠٠ وأناشيدهم الطرية المرحية ، ويعدون ثيابهم الجديدة .
فى تلك الليلة صعد ابننا الى الدار بعد أن انتهى من لهوه
بالفوانيس مع بعض أطفال الجيران ٠٠ ثم بدأ يخرج حلتة الجديدة
ليعلقها على مقعد بجوار فراشه ووضع الحذاء الجديد أمام المقعد
ووضع بداخله جوربه الجديد .

وأقبل أبوه وشاهد المنظر فاستغرق فى الضحك ونظر الى قائلا :
— تماما كما كنت أفعل فى مثل تلك الليلة ٠٠ لا فارق بين الابن
والأب

وانتهى الصغير من تجهيز ملابسه ٠٠ قحمله أبوه بين يديه
وأوسعه تقبيلًا وهو يحاول التملص من بين يديه . وقال الأب مغريا
اياه :

— ما رأيك فى تسجيل اسطوانة ؟

– هايلة •

ولم يكن أحب الى الصبى من تسجيل الاسطوانات •• واقبل
الاثنان يعدان الجهاز وقال الصغير لأبيه :

– ماذا أقول ؟

– سأنظم لك أنشودة تناسب الليلة •• وسأسطرها لك حتى
تسجلها وحتى تتذكر بها ليلة العيد •

وأخذ الأب يكتب ويشطب ويعد دقائق هز رأسه وقال :

– خمسة أبيات لا بأس بها •

وقراها له بضع مرات •• ثم أعد الجهاز وبدأ الصغير يلقي
القطعة بصوته الرقيق قائلا :

ليلة العيد فى سنناك وقفنا

موكباً حافلاً : بنات وغمه

ننشد الشعر والقلوب تغنى

فى حنايا الصدور الأفراح جمه

كل طفل فى كفه مصباح

ساطع الضوء كاشف للظلمه

وهنا توقف الجهاز •• فقد أصابه عطل ، ولم تكن أول مرة
يحدث فيها هذا العطل •• فقد كان الأب متعباً إياه واقبل على
الجهاز يحاول إصلاحه ، ومضت فترة وهو مكب عليه ، وأخيراً رفع
رأسه وقال بشيء من الملل :

– لا بأس •• نؤجل تكملة الأنشودة الى غد • فلا شك أننى

أستطيع إصلاح الخلل فى النهار •

– اذا •• تحكى لى حكاية •

وهز الأب رأسه بالموافقة ، وجلس الاثنان على احدى الأرائك .
وأخذ يقص عليه احدى قصصه حتى أسلمه الى النوم .



وصمتت محدثتى مرة أخرى ، ورأيت وجهها الذى كان مشرقا
بالايمان قد علته فجأة سحابة حزن الیمة معتمة ، ولحت غشاوة
من الدمع قد حجبت بريق عينيها . . . وبدت كأن فى جوفها صراعا
يشتد اواره . . . ثم انطلقت منها زفرة حارة . . . حملت معها شيئا من
لهيب صدرها . . . ثم استرخت السيدة على مقعدها . . . وبدت عليها
بوادى الراحة ، وخيل الى كأنها انتصرت على أحزانها . . . فقد
انقشعت سحابة الحزن وانجلت غشاوة الدمع ، وعاد الى وجهها
اشراق الايمان والى عينيها بريق الطمأنينة ، ثم قالت بصوت هادىء :
- الحمد لله ، الحمد لله الذى لا يحمده على مكروه سواء .

وصمتت لحظة تستجمع فيها شوارد أفكارها . . . ثم أردفت تقول :
- لقد نام ابننا العزيز . . . على أن يستيقظ فى الصباح لكى
يرتدى ملابسه التى جهزها بجوار فراشه . . . وليتم ملء الأسطوانة
بعد أن يصلح أبوه ما بالجهاز من عطل . . . ومع ذلك فما ارتدى
ملابسه ، وما أتم ملء الأسطوانة قط .

انه استيقظ قبيل الفجر ، وظلام الليل لم ينقشع بعد . استيقظ
وأيقظ معه كل من فى الدار . . . فقد أخذ يصيح صياحا يفتت الأكباد
. . . اذ كان يحس الماء فى معدته ، وحاولت تهدئته بوضع قربة من الماء
الساخن . . . ولكن الماء لم يهدأ . . . وخرج أبوه وهو يكاد يجن ، يطرق
باب الأطباء واحدا واحدا حتى أتى بعد ساعة ومعه أحدهم .

وكشف الطبيب صدر الصبى ، وتسمعه بسمعته ثم نقر على
صدره وعلى ظهره عدة نقرات . . . ثم تحسس بأصابعه بطنه . . .

وبدت عليه علامات الحيرة ، وكان الصغيز قد هدأ بعض الشيء ،
ولكن لم تمض برهة حتى عاوده الألم ، وعاود الصياح ، وكتب الطبيب
لنا بضعة عقاقير ثم حاول طماننتنا وانصرف .

وفى الضحى استدعينا طبيبا آخر ، وكان الصبى قد عاوده
الهدوء . وان كانت أنفاسه قد أخذت تتلاحق ، وبدأ يلهث كأنه
يجرى فى سباق . وفحصه الطبيب ، وعندما انتهى من الفحص .
أنبأنا أنها مبادئ التهاب رئوى .

وصدمنى قوله صدمة شديدة . فقد كنت لا أخشى شيئا كالالتهاب
الرئوى . وكنت أفزع لجرد أن أسمع به يسعل سعالا خفيفا ، أو
يصاب بركام . فكيف بى وأنا أراه يصاب بالالتهاب مرة واحدة .
وعصفت بى نوبة من البكاء . وحاول زوجى تهدئتى . رغم
أنه كان فى حاجة الى من يهدئه .

وبدأنا العلاج ، بالسليازول . والانتفلوجستين .
ومر يوم ويومان ، وثلاثة ، وانقضت المدة التى كان يجب أن يبيل
فيها الطفل . ومع ذلك فإنه لم يبيل ، واستمرت الحرارة مرتفعة كما
هى . واحتار الطبيب ، وليس أشد على أهل المريض ، من أن يروا
الطبيب الذى وضعوا فيه ثقتهم . قد انتابته حيرة وأصابه قلق .
واستدعينا ثلاثة أطباء آخرين لعمل « كنسلتو » .

وأعادوا فحص الطفل . وتشاوروا فيما بينهم . وأخيرا استقر
رأيهم على أن الطفل قد أصيب بصديد فى الرئة .
وتلقت الطعنة الثانية التى وجهها الى القدر . وأحسست أنى
أترنح أمامها . وأن قدمى لا تكادان تحملانى . وارتيمت على
الفراش مرتجفة باكية .

لست أدري كيف كنت أعيش وقتذاك . لقد كنت أشبه بجندى
جريح فى معركة غلب فيها على أمره . وأصيب من هول المعركة

بذهول جعله لا يدرك شيئا مما حوله .. ولا يعرف الا أنه يسير ..
الى أين .. ؟ الى متى ؟

لا يدري !

وبدأوا يجرون للصبي العزيز عمليات البذل .. ويدخلون في
ظاهرة ابرة طويلة تنفذ الى الرئة لكي يمتصوا بها الصديد .

ولم يجد البذل نفعا .. وقالوا لنا .. جربوا « البنسلين » ،
وبدأنا نجرب البنسلين .. وأعطى الصغير ما يقرب من مائتي حقنة
.. ومرت بنا ليال كنا لا نذوق فيها النوم ..

كل ذلك وأبوه هادئ ساكن .. يملأ الايمان قلبه وتفيض السكينة
بين جوانحه .

تصور يا سيدي .. أنه هو الذي كان يمسك بالصبي لكي يضع
الطبيب الابرة في رئته .. لست أدري اغلظة منه .. أم شجاعة
وايمان . وكان يكره مني ذلك الجزع .. ولكن ما حيلتي في نفسي
وقد طارت شعاعا .. أية شجاعة يطلبونها مني وأنا أرى ولدي
يترنح بين برائن الموت ؟

وأخيرا قضى الأمر .. فلا نفع البذل ولا البنسلين .. ولا مهارة
الأطباء .. لقد نفذ فيه قضاء الله ، ولا راد لقضائه .

لا تسألني كيف ؟ .. فقد كان يوما أسود .. كنت فيه في حالة
غيبوبة وذهول .

ومرت بي الأيام بعد ذلك وأنا محطمة مهدمة .. لا أكلم أحدا ،
ولا أرى أحدا . ولا أفعل شيئا سوى النحيب والبكاء . حتى زوجي
الحبيب لم يستطع أن يهيب لي العزاء والسلوان .. لقد كنت أريد
ابني .. ابني الذي انتزعوه مني .. وأرقده وحيدا ، في ظلمة
قبر موحش مقفر .

وفى ذات يوم خرج زوجى ، وجلست فى الدار وحيدة ، وأحاطتنى
الهموم والخواطر واندفعت فى النحيب •

وفجأة خطر لى خاطر عجيب •• خيل الى انه قد يبعث الى نفسى
شيئا من العزاء • وهو أن أدير بعض الأسطوانات التى ملأها ولدى ،
فلا شك أن صوته سيعوضنى بعض ما أحسسه من فقدته •

وترددت بعض الشيء ، فقد تملكنى من الخاطر خوف شديد ••
ولكننى قمت فى النهاية ، وتوجهت الى صندوق الأسطوانات ، فكان
أول ما صادفتنى هى الأسطوانة التى لم يتم ملئها ، والتى سجلت
آخر ما تحدث به ولدى العزيز •

وأمسكت الأسطوانة بيد مرتجفة ، وأنا لا أكاد أتمالك نفسى ••
روضعتها على القرص •

ووصل الى سمعى صوته الرقيق الحلو يكرر الأنشودة وقد ملأه
المرح والامل :

ليلة العيد فى سناك وقفنا

موكباً حافلاً : بنات وغلله

ننشد الشعر والقلوب تغنى

فى حنايا الصدور الأفراح همه

كل طفل فى كفه مصباح

ساطع الضوء كاشف للظلمه

ونهضت من مكانى لأرفع الأسطوانة •• وقد انهمر من عيني
الدمع ، ولكننى تسمرت فى مكانى ، وأصابتنى الدهشة •

فقد رأيت أن الصوت لم يكن قد انتهى يعد من أنشودته ، وأنه
ما زال يتم الأنشودة ، رغم أنه لم يكن قد ملأ منها الا الثلاثة الابيات
السابقة •

وأصغيت الى الصوت وقد تملكنى رعب شديد ، ووصل الى
صوت الصبى يتم الانشودة فى صوت ملؤه الألم :

أه ! أمى ! ما حيلتى وسراجى

كل ما هم أن يضىء بهمه

صابه من غزير دمعك صوب

فانطفأ نوره وعاد لظلمه

ولم أشعر بعد ذلك بما حدث .

فقد سقطت مقشياً على .. ولم افق الا وزوجى يحملنى بين

ذراعيه ليضعنى على القراش ، وأخذ يربت على يعطف وحنان .

وهمست فى أذنه بما حدث .. فتملكته دهشة شديدة .. وقام

الى الأسطوانة .. ولكنه لم يجدها الا حطاما .. فقد سقطت عليها

عندما أصابنى الاغماء فتتهشمتم .

ومنذ ذلك اليوم يا سيدى .. وأنا لا أبكى قط .. لقد ملأ الايمان

قلبى وأفعمت الطمانينة جوانحى .

وصمتت السيدة ولحت فى عينيها غشاوة دمع ما لبثت حتى

انجلت .. وعاد الى السيدة اشراق وجهها وبريق عينيها .

امراة شريفة

سیدی العزیز :

ترى لو صادفت قصتی هوی فی نفسک ، فاقدمت علی نشرها
لقرائک ٠٠ فأی عنوان تختاره لها ؟ ! وای کلمات رنانة تکلم بها
هامتها حتی تغری قراءک بقراءتها ؟

« امرأة ساقطة ؟ » ٠٠ « قصة بغی ؟ » ٠٠ « بائعة الجسد ؟ » ٠٠

أی خلعة من هذه الخلع الزاهية تنوی خلعها علی ٠٠ دعنی
أنتقی لك ٠ فانی أعلم مبلغ ولعک بالعناوين البارقة ٠ وماذا یضیرک
وأنت جالس فی عقر دارک تحرك القلم علی وریقات بکلمات قد لا یكون
لها أقل اثر فی نفسک فتتال بها اجرا واعجابا ٠٠ وماذا یضیرنی من
أن تطلق علی أسوأ الألفاظ وتنعتنی بأقبح النعوت ٠٠ هل یضیر
الشاة سلخها بعد ذبحها ؟ ! لا ٠٠ لا ٠٠ یا سیدی ٠٠ سمعی بما
شئت ٠٠ فما عاد فی جسدی بقیة حس ٠٠ أو اثر شعور ٠

أنا امرأة ساقطة ٠٠ عاهرة ٠٠ بغی ٠٠ ! کل ما یخطر علی بالک
من ألفاظ السوء ٠٠ اجعله نعتا لی ٠٠ فأننی فعلا كذلك ٠

السوء ! ما معنى السوء ؟ وما معنى أن يكون المرء سيئاً ؟ أنا أفهم أن السوء هو أن تلحق الضرر بغيرنا عامدين .. أو نتمنى لهم الشقاء والتعس ، ونكره لهم الخير ونحسد لهم على النعمة .. أنا أفهم أن معنى أن يكون المرء سيئاً .. هو أن يرتكب السيئة ، والسيئة هى كل ما ينتج شراً .

اليس كذلك يا سيدى ، أم أنا مخطئة ؟

وأنا امرأة سوء ما فى ذلك شك .. فقد أجمع الكل على أنى كذلك ، وأكون حمقاء مجنونة لو حاولت إنكاره .. ولكنى مع ذلك عندما أخلو الى نفسى فى بعض الأحيان فأحاول أن التفت حولى لأرى مبلغ ما بى من سوء أو أحاول نبش الماضى : لأنقب عما فعلت من سيئات .. لا البث أن أصاب بحيرة ، وأقول لنفسى : اما اننى عمياء يلهاى لا أستطيع أن أبصر بنفسى أو أدرك ما فعلت .. واما اننى لست امرأة سوء .. وما كان فى كل ما اتيت به أمر اد ولا فعل نكر .

اننى لا أتذكر قط انى حاولت أن الحق ضرراً بأحد .. عامدة أو غير عامدة .. انى ما تمنيت لأحد شراً ولا كرهت للناس خيراً ولا حسدتهم على نعمة .. اننى لم ارتكب ما يصح أن يسمى سيئة بمعناها الحقيقى .. فما أنتج فعلى شراً قط .. وحتى هذا الفعل الذى ارتكبته - الذى يسمونه سيئاً - قد ارتكبته لأننى لم اكن أستطيع الا أن ارتكبه .. فقد كان السبيل الوحيد أمامى للعيش ، فسلكته .

هل يهكم أن تعرف كيف سلكته أول مرة ؟ هل تظن هذا من مستلزمات القصة .. أنا لست قصصية حتى أعرف ما يقال وما لا يقال .. أو أعرف ما يشوق وما لا يشوق . ولكنى لا أظن أن هناك ضرراً من أن أبداً قصتى من تلك النقطة .. النقطة التى اندفعت

عندها الى الهاوية .. النقطة التى اضحيت بعدها شيئا آخر غير الذى كنته ، اضحيت امرأة سوء تتردى فى الظلمات .

كان نلك فى يوم ما زالت ذكراه واضحة جليلة فى رأسى كأنه الأمس فقط ، يوم شتاء هبت فيه موجة من البرد عاتية قارصة تحمل فى جوفها قرا وزمهريرا .. واندفعت فى الطرقات الخالية لا الهوى على شيء ، وتطاردتنى الريح كأنها الذئاب العاوية وقد حملت طفلى على كتفى أحاول أن أجد لنا مأوى يقينا غائلة البرد .. ومرت برأسى اذ ذاك صورة عابرة سريعة للماضى القريب ، الماضى الممتع الهنىء .. الذى مر كأنه لح البصر . أو كأنه حلم « فى الدجى ، أو خلصة المختلس » .

خلصة المختلس ! ما أشد هذا الوصف انطباقا على .. وعلى تلك اللحظات التى كنت أمتع بها ، أجل يا سيدى لقد كنت مختلسة . وكانت سعادتى اختلاسا . وما الذا من اختلاس . لقد اختلست زوجى .. اختلسته اختلاسا . لأنه لم يكن لى الحق فى أن أقف بجواره مرفوعة الرأس وأقول على ملا من الناس : « هذا هو زوجى » .. لم يكن لى هذا الحق الذى لا أظنه الا حق كل انثى تعتز برجلها وتقويه به ، لأننى كنت أعيش كالجرذان فى باطن الأرض . أو كالخفافيش فى حلقات الليل . ومع ذلك فقد كنت قانعة راضية .. يل أكثر من هذا ، كنت مثلا لامرأة سعيدة هانئة .. ولكن ، ما أعجب الحياة ! يقنع البعض منها بالنزر اليسير فتأياه عليهم . وتغدق نعمها على البعض الآخر فيكفرون بها .. لقد كنت من القابضين بقليلى وبنعمتى المختلسة .. فأبتها على .. وحرمتنى اياها !

لقد كنت لا أجسر أن أقول انه زوجى ، لأننى كنت خادمته قبل أن أصبح زوجته . ولقد كان كثيرا على أن أصبح زوجته فما كان لخادمة أن تتزوج من سادتها وأبناء سادتها .

أقول كثيرا .. قبل أن تقولها أنت .. فأننى أعلم أنه شيء مفزع
أن يتزوج ابن السيد خادمته .. ولكنى فى قرارة نفسى لا أحس أنه
شيء كثير .. ألسنت انسانا يا سيدى ؟ اليس لى قلب انسان ..
واحساس انسان ؟ أم ترى الخدم من جنس والسادة من جنس آخر ؟
على أية حال .. لا أظن المجال مجال مناقشة فى مسألة كهذه ..
فخير لى أن أسوق لك الحوادث مجردة من التعليقات .. وعقب عليها
أنت كما تشاء .. فقط .. ليتك تنصفنى ، فما أحسست بالانصاف
مرة واحدة فى حياتى .

لقد أحببته وأنا صبية خادم .. وهو فتى فى مستهل شبابه
وريعان صباه على وشك أن يضع قدمه على أول درجات مستقبل
زاهر متفتح .. ولست أظن فى حبى له عجبا .. فقد كان كل ما فيه
يحب .. خلقه وخلقه .. قلبه وروحه .. باطنه وظاهره .. كل شيء
فيه جميل محبوب .. وقد كان من المحتمل أن تمر المسألة مروراً عابراً
.. وأن يظل مستكناً فى صدرى .. حب خادم لسيدتها .. حب
لا ينبغى له إلا أن يطوى فى الحنايا .. ويحبس فى الضلوع ..
لولا أن همسات القلب - على خفوتها وعلى محاولتى كتمانها - قد
وجدت لها سمياً مجيباً .. ولولا أن داء الفؤاد قد وجد له من
الحبيب آسيا وطبيباً .. لقد أحببته الفتى السيد !

أتراه شيئاً يبعث على الدهش أن يحب سيد مثله خادماً مثلى ؟
مهما يكن الأمر فهذا هو ما حدث .. فالقلوب مجنونة .. ما خلق
الله فى الانسان أحقق منها ولا أخرق .. تندفع فى الحب بلا روية
ولا تفكير .. ما استطاع امرؤ قط أن يسيطر عليها أو يتحكم فيها ..
لقد أحببته الفتى السيد ! كيف ؟ ولم ؟ .. لست أدري !
أترى كان بى ما فتنه وأغراه ؟ .. أترى كان بى جمال حرك قلبه .. ؟
كيف كنت وقتذاك ؟ .. ماذا أقول لك ، وليس من اليسير على المرء

أن يصف نفسه .. وخاصة المرأة .. اذا قالت جميلة فكل امرأة
تظن نفسها كذلك ، واذا تواضعت فانكرت على نفسى الجمال ..
عزت على نفسى .. التى لم ينصفها أحد .. حتى أنا ! على أية حال
لقد قالوا : « حسن فى كل عين من تود » وما دام الفتى قد أحبنى ..
فلا شك اننى كنت نحسنا فى عينه .

قد تقول ان الفتى اشتهاى .. مجرد شهوة .. كما يشتهى
السادة خدمهم فى بعض الأحيان .. ولن أنكر عليك قولك فقد يكون
به شيء من الحقيقة ، ولكن ما الحب ؟ وما الشهوة ؟ هل يمكن أن
نجعل من كل منهما شيئا منفصلا ، ليس لأحدهما صلة بالآخر ..
هل الحب شيء والشهوة شيء ؟ لا أظن .. وأنا كأمراة .. أقول لك
ان الحب لا بد أن ينتهى الى شهوة والشهوة لا تطفئه بل تسقيه
وتنميه .. والا جف وذوى .. اما الشهوة فلا يثيرها الا من نصب ..
فالحب والشهوة شيئان يتم أحدهما الآخر .. فلا حب بلا شهوة
ولا شهوة بلا حب . ولم لا أكون أكثر صراحة ، فأنبئك ان الحب يبلغ
أقصاه عندما تبلغ الشهوة أقصاها .

لا تقل .. حديث امرأة بفى .. فكلنا فى هذا الأمر سواء ..
البغايا وغير البغايا .. كل ما فى الأمر أننى فقط أجرؤ على قوله ،
وغيرى لا يجرؤ .

لقد أحبنى الفتى السيد ! ولنفرض أن حبه قد بدأ مجرد شهوة ..
ماذا يضيرنى كيف بدأ .. ما دام قد أخذ يتطور ويتمكن فى قلبه على
مر الأيام ؟ .. وما دمت قد بدأت أجد لنفسى فى قلبه موضعا هو أقصى
ما أتمناه ؟ !

أجل يا سيدى ، قد يكون حبه بدأ مجرد اشتها .. ولكن الايام
جعلت منه بعد ذلك حبا قويا مخلصا .. عنيقا جارفا .. لا يعوقه
حائل .. ولا تتقف فى طريقه عقبة .

ولقد مرت الأيام وعلاقتنا - ولا أقول حبنا حتى اثبت لك بما لا يحتمل الشك أنه قد صار حبا - يطويها الكتمان ، حتى أحسست ذات يوم أنني قد حملت .. فتملكني حزن وقلق وأحسست بخوف شديد .. وخشيت أن أصارحه .. خوفا من أن أحمله عبئا يرهقه ولكنه أحس بى قلقلنا .. والح فى معرفة السبب .. فأنبأته .

ولو كان احساسه نحوى مجرد شهوة . لأفزع الأمر ولحاول جهده التخلص منى .. ولأحس بى عبئا يثقل كاهله ويقوض ظهره .. ولو فعل ذلك لما أثار فعله شيئا من الدهش ، ولكنه لم يفعل .. بل أمسك بوجهى فى رفق بين يديه ومسح بشفتيه دموعا ترقرت فى عيني وسالت على صفحة وجهى .. وأنبأنى بصوت هامس أننا سننزوج ! قول عجيب .. لا يصدق عقل ! فالرجال أنانيون .. لا يسعهم فى مثل هذه الأحوال إلا أن يلقوا العباء على سواهم ويحاولوا التخلص منه بأقرب وسيلة .. ولكن الفتى لم يفعل .. بل سألنى الزواج .. ولا اظن هناك ما يمكن أن يبرر تصرفه .. أو يدفعه الى ما فعل .. الا شيئا واحدا هو الذى يدفع الانسان الى فعل كل عجيب وهو الحب .. أجل .. لقد كان يحبنى ما فى ذلك شك .

ولم تكن مسألة الزواج من السهولة بحيث لا تعدو مجرد عرض . منه وقبول منى .. فقد كان علينا أن نتوقع ثورة من أهله .. ومن أقربائه .. وأصدقائه .. بل ومن كل انسان له به ادنى علاقة .. فما كان زواج فتى فى مثل مركزه بخادم مثلى بالشئ الذى يقبله العقل بسهولة .. وكنت أكره أن أعرضه لتلك العاصفة .. فقلت نه انى سأفر من الدار وسأبعد عن طريقه .. وأعرف كيف أدبر أمرى - ولكنه هز رأسه بشدة ، وأنبأنى أنه هو الذى سيعرف كيف يدبر أمرنا معا . ولقد استطاع فعلا أن يدبر أمرنا معا .. على خير حال ،

ودون أن نثير حولنا أية عاصفة ، فقد استأجر لى سرا شقة صغيرة
فى حى متواضع ، وقررت من الدار إليها ٠٠ وعقدنا زواجنا سرا ٠
وبدأت أحيا حياتى الجديدة ٠٠ التى قلت لك عنها ، انها كانت
خلسة المختلس ٠٠ ولقد كان كل همى وهمه أن نستتر أنفسنا ، فكان
يزورنى خفية فى أوقات متقطعة كأننا لصوص نققسم غنيمة مسروقة
٠٠ ولقد كنا فعلا كذلك ، لقد كنا نققسم لحظات هنيئة سرقناها فى
غفلة من الزمن ٠

وكانت تمر بى أوقات تتنابنى فيها نوبات من الحزن عندما أخلو
الى نفسى فأرانى أحيا حياة الجرذان ٠٠ وعندما أحس أننى لا أجرؤ
أن أقول اننى زوجته حتى لا أشين سمعته وأسبب له مهانة بين
الناس ٠٠ ترى اهنالك ما يحز فى النفس ويورثها الحسرة أكثر من
أن يجد الانسان نفسه مبعث مهانة ومصدر ازدراء لأعز الناس عليه
وأجيبهم الى قلبه ٠٠ ومع ذلك فقد كنت سعيدة كل السعادة ٠٠ ان
كانت لحظات اللقاء تبدد تلك السحب القاتمة التى تتجمع فى نفسى ٠٠
وكنت أنسى كل شيء عندما أحس به يضعنى الى صدره ٠

وأخيرا وضعت طفلتى ٠٠ صورة طبق الأصل منه ٠٠ جميلة
التقاطيع ٠٠ نبيلة الملامح ٠٠ طبع على محياها ابتسامة جذابة ٠٠
لقد كانت ابنة السيد لا ابنة الخادم ٠

وملأت الطفلة حياتى بهجة وحبورا ٠٠ ولم أعد أحس بالوحشة
فى غيابه ، ولم تعد تضنننى الوحدة كما أضننتنى من قبل ، وقد سر
أيوها أيما سرورا ، وأحبها حب عبادة ٠

ومرت الأيام وأنا قريرة العين هانئة ٠٠ قانعة بأحلام الدجى
وخلسة المختلس ، حتى أحسست لهجة أنى أفريق من الحلم لأجد
الزمن قد أبى على القليل الذى سعدت به ٠٠ ولأجده قد ضبطنى
متلبسة بجريمة اختلاس لحظات هنيئة فى غفلة منه ، فقبض على

عنقى ، ونزع غنيمتى من بين يدى • أجل لقد انتزع منى زوجى ،
أو قل لقد انتزع روحى ، وتركنى جسدا بلا روح •
لقد مات زوجى الحبيب ••• زوجى الذى ما جسرت فى حياته
أن أقول انه زوجى ، والذى كنت اذا ما ضممت الى صدرى انتابنى
احساس اللص يتسلل بغنيمته فى الظلمة يضمها الى صدره خشية
أن يستردها الشرطى ، وذهبت الى قبره لأبكيه ، لا كزوجة بل كخادم
فقد كرهت أن اثير حوله العاصفة التى تجنبناها فى حياته •• ثم
أى شئ سيعود على من أن أعلن أننى زوجته سوى سخط اهله
وغضبهم على • لا •• لا •• خير لى أن أكون شجاعة فأحمل العبء
وحدى •

ولقد كان العبء يا سيدى ثقيلا •• ليس بالنسبة لى •• فلقد
كان على أن أحتمل الفجيمة ، وأن أصبر على قضاء الله •• وأتعود
الحلقة التى شملتني بعد موته •• أجل •• لقد كان الأمر - على
مرارته - محتملا بالنسبة لى •• ولكن •• عندما كنت أفكر فى
الطفلة •• كنت أحس بالاختناق •

هذه الطفلة العزيزة •• الجميلة النبيلة •• التى كنت أدبر لها
فى رأسى كيف أربيها وأنشئها نشأة السادة ، وكيف كنت أنوى أن
أجعلها ابنة أبيها •• وأن أجعلها خير الفتيات •• قد أضحيت
لا أكاد أعرف كيف أجد لقمته •

وطردت من البيت بعد فترة من الوقت •• فقد كنت لا أملك أجره
وحملت طفلتى أهيم بها فى الليلة الليلاء القارسة البرد •• لا أكاد
أجد ما يقينى سر البرد وغائلة الجوع •

ومرت بى الأيام •• طريدة شريفة •• أجول وأستجدى حتى
وجدتنى قجاة أقف أمام المسلك البراق والطريق الملىء بالأضواء ••
تغرينى أضواؤه بالدخول اليه • وبأن أكف عن أن أكون امرأة شريفة

تتصور جوعاً هي وابنتها ٠٠ ابنة السيد العزيز ، ولو كان الأمر يقتصر على الاستطاعت أن أحتمل ٠٠ ولاستطعت أن أبقي شريفة مدى الحياة ، ولكن ابنتي يا سيدي ، ما ذنبها ؟ ما ذنبها ؟ هل أضحي بها ٠٠ لمجرد أن يقال عني امرأة شريفة ؟ لا ٠٠ لا ٠٠ يجب ألا أكون أنانية ٠٠ اني أريد النقود لتربيتها ، والطريق أمامي مليء بالنقود فلم لا أخوضه ؟

وبدأت حياتي الجديدة ٠ ولم تكن بالسهولة التي صورتها . فقد كانت حياة جهاد . لاقيت فيها الأمرين . ولكنني استطعت النجاح وأخذت أنتقل من درجة الى درجة . من امرأة شارع . الى امرأة بيت ٠٠ الى امرأة صالة ٠٠ الى راقصة ، وفي كل مرحلة من مراحل حياتي المفاجرة . لم يكن همي سوى جمع النقود لتربية ابنتي . ولقد نجحت كل النجاح ، واستطعت أن أربيها كابناء السادة ٠

انا الآن يا سيدي امرأة في خريف العمر . ولقد تخرجت ابنتي في الجامعة ٠٠ نمونجا للفتاة ٠٠ في الجمال والكمال ، في الخلق والخلق ٠٠ لا أقول ذلك لأنها ابنتي ، فكل من رآها قال عنها ذلك ، وكل من صادفها قال عنها انها مثل أعلى ، منزهة عن العيوب . اللهم الا عيب واحد ٠

ماذا تظن ذلك العيب ؟ خمن يا سيدي ؛ ما هو ذلك الشيء الوحيد الذي يقولون عنه انه يعيب فتاتي ! انها ابنة راقصة ! تصور يا سيدي أنني ، أنا ، ذلك العيب الوحيد ٠

تصور بعد هذا الذي فعلته . لا أكون بالنسبة لابنتي في نظر الناس ، سوى شيء يعيبها ؟ ٠ وهي تحس ذلك ٠٠ لا أقول انها تخجل مني ، فهي تحبني حبا جما ، وتقدرني كل التقدير ، وتعرف كل ما فعلت من أجلها ، ولكن كل ذلك لا يمنعها من أن تحس أن الناس يرونني شيئاً يشينها ٠٠ لقد خطبت ثلاث مرات . خطبها أناس

صادفوها فأعجبوا بها أيما إعجاب ، ولكنهم تركوها كلهم ، عندما علموا أنها ابنتى .

أنا حزينه يا سيدى ، وحائرة ، انى عقبه فى طريق ابنتى ، وبودى لو أزلت نفسى من طريقها ، حتى أتمم ما فعلت من أجلها ، ولكن كيف ؟ . بالانتحار ؟ لا أظن ، فسيثير ذلك ضجة من حولها تضرها كل الضرر .

ألا توجد طريقة للموت البطيء . الموت الذى يبدو طبيعيا فلا يثير ضجة ؟ . اننى أحس اننى قد أدبت واجبى . . وأن واجبى الآن هو أن أذهب عنها ، حتى أزيل عنها ما يشينها . هل من طريقة للذهاب يا سيدى ؟

★ ★ ★

هذا الخطاب من راقصة قديمة وصلنى منذ بضعة أشهر ، أيمكننى فطويته . وتمنيت لو لم أكن متزوجا حتى أذهب الى الفتاة فاتزوجها وأنا راقع الرأس فخور بها وبأمرها .

ولقد ألقتنى الظروف بعد ذلك فى طريق الفتاة . . فوجدتها حثلا اعلى ونموذجا للفتاة ، حتى هذا العيب الذى كان الناس يرونه بها ، قد ذهب ، لقد ماتت أمها ! كيف ماتت ؟ لست أدري .

بقيت لى كلمة قصيرة . دعونى أسوقها الى المرأة فى قبرها فقد يكون لها فيها عزاء . . ان كان الموتى يطلبون العزاء

سيدتى . . لقد اتهمتنى بأنى أحرك القلم على وريقاتى بكلمات قد لا يكون لها أقل الأثر فى نفسى ، سامحك الله ، فما كنت قط كذلك . . اننى لا أكتب الا حين أشعر . . . ما رأيك فى العنوان ؟ . اننى مقتنع به كل الاقتناع . . فانت امرأة شريفة . . بل أشرف امرأة صادفتها ، ولو قلت عنك غير ذلك لكنت أحقق لا أعرف مقاييس الشرف !

افسرة عفور

حدثنى صاحبى قال :

— دعنى أذكر لك كيف كنت فى صباى أسير فى محيط الظلمات ..
ظلمات الفقر والوحدة والوحشة ، وكيف بارحت بلدتى الى القاهرة
وأنا صبى صغير لأتلقى العلم ، وكيف كنت أقطن فى حجرة رطبة
مظلمة أنا وخمسة صبية اقتطع اهلهم من أرزاقهم أجور تعليمهم
وأخذت أنتقل من مرحلة الى مرحلة وأنا مثل لتلميذ قروى فقير ..
يبدو عليه الحرمان فى كل مظهر من مظاهر الحياة : الماكل والملبس
والمسكن . ومع ذلك فقد دأبت على السير .
واستطاع الأهل أن يقتروا على أنفسهم ليقترضوا ما يكفى لدفع
المصروفات .. حتى رزئت بموت أبى ، وهنا كان أمامى أن أسلك
أحد طريقين : إما أن أعود الى القرية متناسيا تلك المرحلة التى
قطعتها من مراحل التعليم ، وإما أن أكافح وحدى حتى أصل الى
نهاية الطريق ، ولم يطل بى التفكير حتى اخترت الأمر الثانى اذ كان
من العسير على وقد قطعت نصف المرحلة أن أعود ادراجى الى حيث
كنت .

وبدأت كفاحى ٠٠ كفاحى من أجل لقمة العيش ٠٠ وكنت وقتئذ
فى السنة الرابعة الثانوية والتحقّت بعمل تافه كنت أكاد أحصل منه
على ما يقيم أودى .
واخذت فى الاستذكار حتى استطعت الحصول على شهادة
الدراسة الثانوية .

ومرت بى الأيام فوجدتني أخوض غمار وسط جديد . إذ حاولت
أن أجد من الصحافة موردا للرزق ٠٠ وكنت أعرف زميلا لى يكتب
فى إحدى المجلات أخبار المسارح والصالات ويحصل من ذلك على
أجر زهيد ما كان أحوجنى الى مثله فى ذلك الوقت .

وبدأت أترسم خطاه ، وكان الأمر يحتاج منى أن أندفع الى هذا
الوسط الغريب عنى ، وأن أختلط بأهله وأتتبع أخبارهم ٠٠ ولست
أكتمك أنه لم يكن أحب الى نفسى من ذلك ، فقد كان الوسط - على
انحطاطه وفساده - مليئا بالفتنة والاغراء ٠٠ ولم يكن أسهل على
نفس فتى قروى فقير محروم من الاندفاع الى حيث يجد الفتنة
والاغراء ، ورغم ذلك فقد كنت حكيما ، متندا ، فلم أنزل كل الانزلاق ،
ولم أجعل من عملى فى ذلك الوسط الا وسيلة تعيننى على الحياة
وفى وسط تلك الظلمات الحالكة - التى احتاطت بى - بدت لى
فى الأفق بارقة تستدعينى ٠٠ انا الذى لم تسنح فى ظلماته بارقة
ولا أشرق سنا .

رأيتها أول مرة تغنى فى إحدى الحفلات الخاصة وأستطيع أن
أؤكد لك أنه لم يكن بها جمال خارق أو فتنة صارخة ٠٠ بل كانت
تتساوى مع غيرها من المطربات والراقصات اللواتى طال عهدي
بهن حتى أضحين لا يحركن فى ساكننا ٠٠ وبانت نظرتى
اليهن لا تزيد عن نظرتى الى الدمى والعرائس الخشبية . ولكن مع
ذلك لم أكد أنظر اليها واستمع لغنائها حتى غمرنى احساس جارفة

قوى يدفعنى الى أن اذهب اليها فأحتويها بين ذراعى • لقد شعرت.
أنها مخلوقة ، مرهقة الحس ، تختلف كثيرا عن هؤلاء الزائفات
التافهات اللاتى تعودت أن القاهن فى هذا الوسط • وأقبلت عليها فى
شوق ولهفة ، وأنا اشعر فى قرارة نفسى أن هذه المخلوقة لى ، وانى
وحدى مالكا وصاحبها • ولم يخدعنى حسى فقد أقبلت على هى
الأخرى • • وأدركت من نظراتها أننى أعنى شيئا لديها • • فملأتنى
النشوة واستخفنى الطرب ، وخاصة اننى لم أكن بخير الحاضرين
لا شكلا ولا موضوعا حتى تخصصنى وحدى بذلك القدر من الاهتمام
والاقبال التى شملتتى بهما •

ومنذ تلك الليلة أصبحت غريق هوى • • فأغضت عيني الا عن
صورتها ، وتصاممت الا عن صوتها • • وأخذت أدبر أمرى باعتبار
أنها شىء لا أستطيع العيش بدونه • • وبدأت أفكر جديا فى زواجها • •
ورغم أننى كنت واثقا من حبها لى ومن أنه لا يسعدها شىء كزواجنا
• • فقد ترددت فى الأمر كثيرا ، لا لأنى لم أجدها كفئا لى ، بل لأننى
لم أكن كفئا لها • • أجل ! انى لم أكن أملك المال الذى يهيم لها
الحياة التى تتوق اليها ، أو على الأقل يجعلها تعيش كما هى فى
بساطة من العيش وفى رغد من الهناءة •

وفى ذلك الوقت بدت لى فرصة سانحة لى أكون خيرا مما أنا ،
ولكن كان يتحتم على أن أغادر القطر لبضع سنين • • ودفعنى أمل
الشباب وحافز الحب الى أن أقدم على السفر حتى أعود وبنفسى
تلك الثقة التى كنت أفقدها وقتذاك •

وأنبأتها بما عزمته عليه • • قاصبتها الدهشة وحاولت أن تثنيى
عن السفر ، ولكنى قد حزمته امرى • • وأخيرا افترقنا وبنفسينا
لوعة • • وهمست فى أذنى أن صورتي لن تفارق مخيلتها ، وأنها
ستذكرنى فى كل لحظة • • وأنها ستعد الأيام حتى أعود •

ولست أدري كيف ينقلب عزم الانسان فيتحول فجأة الى ضعف
وتخاذل .. انى لم أكد أبدأ الرحيل يا سيدى حتى أحسست بانهايار
فجائى ، وبحنين الى صاحبتى .. وأخذت أسائل نفسى : أى حمو
دفعنى الى الرحيل ؟ .. لم لم أمكث معها وأنعم بقربها حتى يفعل
القدر بنا ما يفعل ؟

ولم تكن هناك فائدة من هذا التخاذل فقد قضى الأمر .. ولم يكن
على الا أن أتماسك واحتمل الرحيل . وان أحتمل كذلك فرقة الأعوام
الطويلة .

ولك أن تتصور يا سيدى كيف مرت بى الأعوام فى غربتى مليئة
بالوحشة والكآبة .. يعصف بى الحنين ويضننى الشوق .. ولم
تبارح صورتها مخيلتى لحظة واحدة .. أراها فى كل ما أبصر
وأحس بها فى كل ما أفعل ..

واعتنق الغصن الرطيب لقدها

والثم ثغر الكأس أحسبه فاهها

لا يكاد يعيننى على الفرقة الا رسائلها الحارة الملتهية ، والتي لم
تنقطع الا قبل عودتى ببضعة أشهر كنت خلالها أتقلب على جمر
القلق ونيران الآسى .. وأخيرا حل موعد العودة ، ولا تسأل عما
كنت أحس به من اضطراب اثناء عودتى ، وكيف أصبحور لنفسى
لقاءها .. ماذا أفعل ، وماذا تفعل هى ، وأرسم فى ذهنى التفاصيل
والحذافير وأحس منها بنشوة وممتعة ..

ووصلت الى القاهرة .. وذهبت الى دارها .. وسألت عنها ..
فقبل لى انها انتقلت من الدار ، وأحسست بالخيبة .. ولكن لم يكن
عن العسير على أن أعرف عنوانها الجديد .. فانطلقت اليه .. وطرقت
الباب ، فأجابنى صوتها ، أجل صوتها هى ، فقد نفذ الى قلبى فجعله

يكاد من فرط الطرب يرقص ، وفتحت الباب ، ووقفت أمامى بلحمها
ودمها بعد طول غيبة .

ونظرت الى فى دهش شديد . وتراجعت بضع خطوات قدلفت الى
الداخل ووجدت فى الجو شيئا غريبا لم أفهمه . . شيئا استطعت
أن أحس به ، ولكننى لم أدرك كنهه . . شيئا بدا لى جليا من نظراتها
الملبئة بالدهشة التى يشوبها شيء من الذعر ومن لقائها الذى لم أكن
أتوقعه .

واندفعت اليها أضمرها الى صدرى فقد خيل الى أن الامر كله
ليس الا مظهرا لمفاجأتى لها . . ولكنى أحسست بها تتخلص من بين
نراعى وتدفعنى بهدوء ثم تنبئنى أنها قد تزوجت . . تزوجت ؟ ! هى
تزوجت ؟ ! يمكن أن يكون هذا معقولا ؟

أية صاعقة انقضت على رأسى فتركتنى فاقد الحس غائب الوعى .
من يكون ذلك الشخص الذى احتواها حتى لفظتنى من أجله ؟
لقد كان صاحب المسرح الذى تعمل به !
ووقفت أمامها ، شاردا حائرا ، جامدا مذهولا .

أى يا سيدى لو أدركت المشاعر التى كانت تصطبغ فى صدرى
وقتذاك . . وأنا أرى حبيبة العمر التى شددت قلبى اليها وربطت
مصيرى بمصيرها وخذلتنى ولفظتنى لفظ النواة . . وأنا الذى
أثرت الغربة والفرقة لكى أستطيع أن أهيب لها الراحة والهناء .
وانتابتنى فجأة ثورة من الغضب . . عاصفة عاتية . . وتبدد
الحب من نفسى فانقلب بغضا شديدا . . وتملكتنى رغبة جامحة فى
أن أحطمها كما حطمتنى ، وأمسكت بها بين يدى أهزها هزا عنيفا .
ووقفت تنظر الى وقد تملكها ذعر شديد . وحبست الكلمات فى
صدرها ، فلم تستطع النطق . وحاولت عبثا أن تتخلص من بين
نراعى ، وأخيرا دفعتها دفعة قوية ألقت بها على الأرض .

وعندما سقطت اصطدم رأسها بأنيّة نحاسية قد وضعت فى ركن
الغرفة ٠٠ ووقفت لحظة أحرق فيها وأنتظر أن تنهض أو تتحرك ،
ولكنى لم أر فيها عضلة تختلج ٠٠ بل رأيت الدم يسيل من جرح فى
مؤخرة رأسها . فأحسست بأطرافى تتجمد ووقفت برهة لا أحرك
ساكنا ولا أحس بشيء ٠٠ فقد كنت فى حالة ذهول تام ، ثم بدأت أفيق
لنفسى ، واقتربت منها أتحمسها بيدي ، فإذا هى جثة هامدة
لا حراك بها !

هل سبق لك أن قتلت انسانا يا سيدى ٠٠ وأى انسان ؟ انسان
تجد فيه توأم روحك ونصف نفسك ؟ طبعاً لا . إذن فمن العيب أن
أحاول أن أبين لك مشاعرى فى تلك اللحظة المخيفة ٠٠ لحظة أن
اكتشف أنني قتلت صاحبتى . لقد اجتاحت نفسى عاصفتان من
المشاعر . عاصفة من الشعور بالوزر والخوف الشديد من نتائج
وعاصفة أخرى من الحنين القوى والحب الجارف .

ومضت لحظة وأنا ثابت فى مكانى تنتابنى الأحاسيس المتناقضة
المختلفة . وأخيراً تغلب الشعور بالخوف وطرد من نفسى كل ما عداه
من المشاعر ، فوجدتني أتسلل من الغرفة . تاركاً كل شيء على ما هو
عليه . وانطلقت من الدار هارباً .

انطلقت فى طريقى ٠٠ مجرماً يطارده شبح جريمته . وقاتلاً تقض
مضجعه الوسواس وتلاحقه الأوهام .

وفررت من القاهرة الى إحدى القرى النائية . ومرت الأيام وأنا
قابع فى مخبئى منقطع عن العالم تمام الانقطاع حتى بدأت نفسى تهدأ
بعض الشيء ٠٠ ثم ألفت بى الظروف الى رجل طيب يملك مطحناً
لطحن الغلال ، فاستخدمنى كاتباً فى مطحنه ، وأحس الرجل
بالاطمئنان الى وأحسست بالاطمئنان اليه ، فوثقت عرى الصداقة
بيننا وازدادت ثقته فى على مر الأيام ٠٠ وسررتى منه انه لم يحاول

أن يزج بنفسه فى ماضى ، ويثقل على بأسئلة قد أجد منها حرجا ، بل أخذنى على علاتى ، وقبل بسهولة تلك الرواية التى رويتها عن نفسى ٠٠ والتى أخفيت منها كل ما قد يكشف عمن أكون ، أو عن الجريمة التى خلقتها ورائى .

وكانت للرجل ابنة ، لم أكن أرى فيها أكثر من طفلة لاهية ٠٠ ولم أحاول أن أتخيلها أكثر من أنها طفلة لاهية ، وإن كانت هى فى الواقع أكثر من ذلك الخيال ٠٠ أجل لقد كانت من نوع عجيب .

أتدرى ذلك النوع من الفتيات التى إذا ما قلت عنها ابنتك صدقوك ، وإذا ما قلت عنها زوجتك لم يكذبك أحد ؟ ذلك النوع الذى يطالعك من وجهه طهر الطفولة وبراءتها ، ويبهرك من جسده سحر الأنوثة وطفيلاتها ٠٠ لها وجه طفلة على جسد امرأة ٠٠ ذلك الشعر الذى ينساب على ظهرها أنسياب الغدير ، وهاتان العينان الصافيتان ، وثغرها المتلألئ وجسدها الممتلئ المشوق الذى يفيض بالحياة والذى يجعلها لا تسير كما تسير ٠٠ بل تقفز وتتوشب

لا تظن وصفى لها وصف معجب مأخوذ ٠٠ فأنى يا سيدي قطعاً لم أكن أنوى أن أشتبك معها فى معركة غرام ، لأنى - كما قلت لك - لم أكن أرى فيها أكثر من طفلة ، وفوق ذلك لم أكن قد أفقت بعد من حبى الأول ولم أكن فى حالة من راحة الضمير وهنوء النفس بحيث يسهل على أن أقدم على هوى أو أقع فى غرام .

ومع ذلك ٠٠ ومع كل ما سلف ذكره ٠٠ وقعت فى الشرك ٠٠ لا تسألنى كيف ؟ لا تسألنى لم ؟ إلا إذا كنت تسمح لنفسك أن تسأل مجنوناً لم جن ، أو ميتاً لم مات ؟ هذا قضاء الله ولا راد لقضائه . وبدأ الأب بدوره يحس هوائى ، وبدأ لى من تضيقه الخناق علينا . أنه يخشى مغيبته ، فوجدت من الخير أن أشعره أننى لا ألهو وأنى أرغب فى الزواج من ابنته ٠٠ وبدأت المح له بذلك فلقيت منه ترحيباً .

وتمت الخطبة بيننا ، وكان كل ما حولى يبعث على الاطمئنان والهدوء ٠٠ ولكننى مع ذلك كنت أحسن قلقا ، وكان يخيل الى دائما أن ذلك الهدوء الذى يحيط بى ليس الا الهدوء الذى يسبق العاصفة ، وكنت أعتقد فى نفسى اعتقادا جازما أن العاصفة آتية لا ريب فيها ٠٠ عاصفة جارفة لا تبقى ولا تذر .

وكان المفروض أن حب صاحبتى سيخفف عنى شعورى بالوزر ، ويذهب عنى وطأة الضمير ٠٠ ولكننى رأيت الأمر على النقيض . فقد بدأ الاحساس بالجرم يتضاعف .

واستمر قللى يتزايد لحظة بعد لحظة ٠٠ ويوما بعد يوم ٠ حتى كان ذات يوم وقعت الواقعة فقد أبصرت شرطين يقبلان على ٠٠ فأحسست برجفة ٠٠ وانتابنى فزع ، ورغم أن الشرطين لم يكونا قد قدما الا لمخالفة تافهة وقعت من المطحن ، الا أننى لم أتريث حتى أعرف سبب قدومهما ٠٠ بل أيقنت أنهما قد حضرا ليقبضا على ، واندفعت كالمجنون الى صاحب المطحن ٠٠ لأعترف أننى القاتل ٠٠ وأذكر له قصتى ، وأقول له اننى قد خدعته ، ووقف الشرطيان ينظران الى فى دهشة كأننى مخبول أو مجنون ٠٠ ثم أنبأنا عن سبب قدومهما .

وكدت أصعق يا سيدى ، ومع ذلك فأنى لم أندم ولم أترجع ٠٠ الى متى أظل هكذا مثقل الضمير مرتعد الأوصال ؟ الى متى هذا الفزع الدائم والخوف المستمر ؟ ماذا يمكن أن يصيبنى أكثر مما أنا فيه ؟ أن الموت خير من توقعه ٠٠ والسجن أفضل من انتظاره ، أجل ! لا شيء هناك شر من هذه الوسوس التى تنهش صدرى . وقادونى الى المركز ٠٠ وأودعت السجن فى انتظار ما يسفر عنه استقحامهم عن حقيقة الجريمة من محافظة القاهرة ومر يومان وأنا ملقى فى السجن جسدا بلا روح . وفى صباح اليوم الثالث ،

طلبني الأمور ، لا ليرسلني الى سجن القاهرة ، بل ليطرديني من أمامه
شر طردة ٠٠ وينذرني بالأحاول ازعاجهم بالتبليغ عن جرائم وهمية
بعد ذلك ، فان المطرية المذكورة قد ماتت حقا ، ولكن وفاتها كانت
طبيعية .

آية دهشة تملكنتني وقتذاك ؟ كيف استطعت ان احتفظ بصوابي
فلم أجن ؟ لقد سرت في طريقي شاردة ذاهلا ، وتوجهت الى بيت
الرجل صاحب المظن ٠٠ فاذا به يوصد بابيه في وجهي ٠٠ ويطردني
شر طردة ، لأنه لم ير في الا احد رجلين : اما مجرم أو مجنون !
ولقد كان الرجل معذورا حقا .

وذهبت أهيم على وجهي عائدا الى القاهرة ٠٠ ذليل النفس ،
كسير القلب ٠٠ وساقنتي قدماي من حيث لا أشعر الى بيت صاحبتني
الأولى .

لقد وجدت الدار فقرا بلقعا . لقيت بها زوج صاحبتني ، صاحب
المسرح ، وقد طوته الوحدة والوحشة وبدا محطما مهتما ٠٠ ورحب
بني الرجل وجلسنا نتحدث عنها ٠٠ وفجأة رأيته يرفع رأسه ثم يقول :
- لقد أجزمت في حقك وفي حقها ٠٠ لقد سلبتك أياها وسلبتها
إياك ٠٠ لقد كنت أريدها فمكنت عنها رسائلك في الأشهر الأخيرة
وأنبأتها أنك قد تزوجت ٠٠ وظللت بها أغريها بزواجي وأضيق عليها
الخنناق حتى قبلت ٠٠ ولكني كنت أحمق ٠٠ فما استطعت قط أن
أستولى على قلبها فلقد ظل ملكا لك ٠٠ انها ما نسيتك لحظة واحدة .
وأحسست برعدة في بدني وغصة في حلقى ، ووجدتني أسأله
بصوت مبجوح ، ذلك السؤال الذي ليس هناك أدرى مني بإجابته :
« كيف ماتت ؟ ! » .

فأجاب :

- لقد عدت الى الدار ذات يوم فاذا بها ملقاة على الأرض تلفظ

أنفاسها الأخيرة وقد أصيبت بجرح فى رأسها ٠٠ وفى سكرة الموت
أنبأتنى أنها أحست باغماء وانها هوت الى الأرض ٠٠ فلقد كانت
حاملًا .

وصمت كلانا فلم ننبس ببنت شفة .
آه يا سيدى لو تعرف كيف أدمى قول الرجل قلبى ٠٠ ومزق
حشاى !

وشرد بى الذهن فتخيلت جسدها مسجى أمامى بلا حراك .
يا للمرأة الوفية الغفور ٠٠ !
لقد لفظت حبها فأبقت على حبى ٠٠ لقد سلبتها الحياة فمنحتنى
الحياة ٠٠ لقد أبيت عليها المغفرة فسمحت لى بالمغفرة . وآية مغفرة !
آه لو كان الموتى يفتدون ٠٠ لافتديت قلامة ظفرها بكل عمرى !

امـرأة...

لنجعلها أقصوصة رمزية ٠٠ حدثت فى قديم الزمان ٠٠ ولنجعل
حوادثها تقع فى الصين أو فى الهند أو فى أى مكان ٠٠ لأن الزمان
أو المكان ليس لهما تأثير يذكر فى مثل هذه القصة ٠٠ إذ لا شك أنها
قد حدثت ، وتحدث ، وستحدث فى كل مكان ، وفى كل زمان ٠

ابطالها ثلاثة : زوج كهل ذو مال وجاه وسلطان ٠٠ وزوجة فتية
ذات جمال وسحر وفتنة ٠٠ وتابع – صديق أو أجير أو ليكن من كان
– فى ربيع العمر ومستهل الحياة ٠٠ يفيض منه الشباب ويمتلئ
بالقوة ٠

هذا هو الثالث ٠٠ الذى لا يكاد يلتقى فى هذه الحياة – وكثيرا
ما يلتقى – حتى يكون قصة ذات وجهين ٠٠٠ أو ذات موضوعين :
حب ٠٠ وخيانة ٠٠ حب بين الطرفين الثانى والثالث ٠٠ ينتج عنه
خيانة للطرف الأول ٠

ولا اظن من العجب أن ينتج لقاء هذا الثالث قصة ٠٠ وأن يشأ
عنه الحب وتقع الخيانة ٠٠ لأن هذا شئ لا يمكن أن يقع . الا اذا
كان يدهشنا أن نشعل ثقابا فى مادة ملتهبة ٠٠ فتضطرم النار ٠٠

ولكن العجيب حقا هو ألا يرى النار مشعلها ٠٠ وأن يكون أجهل
الناس بالقصة التى تجرى حوادثها تحت بصره هو بطلها الأول ٠٠
أو ضحيتها الأولى .

وفى قصتنا هذه لا يبدو البطل ٠٠ أو الضحية خيرا من سواءه فى
بقية القصص المماثلة ٠٠ أو على الأقل هذا ما كان يخيل لمن كان حوله
من الناس ٠٠ فهو فى غفلة عما يجرى بين زوجته الحسنة وتابعه
الشاب ٠٠ لا يكاد يحس شيئا مما تلوكه الألسن وتتشدق به الأقواء
٠٠ ولا يكاد يشم رائحة لغدر أو خديعة ٠٠ فهو قرير العين ناعم
البال ٠٠ لا يظن بامرئء شرا ولا يتوجس خيفة .

نقول ان هذا هو ما كان يخيل الى الناس ٠٠ حتى حدث بعد
ذلك ما أثبت أنهم كانوا فى ظنهم جد مخطئين ٠٠ جد واهمين .
فى ذات يوم أعلن الرجل « الأمير » عزمه على الخروج الى الصيد
٠٠ وأمر رجاله أن يشدوا رحالهم ويحزموا أمتعتهم وأن يأخذوا معهم
ما يحتاجونه من مؤن ومياه ٠٠ اذ أن رحلتهم ستطول بعض الوقت ،
فقد كان فى نيته أن يجول جولة طويلة وسط الغابات .

وسار الركب يتوسطه الرجل ٠٠ طويل القامة نحيف الجسد ٠٠
قد وخط الشيب شعره ٠٠ وأخذت التجاعيد مكانها من وجهه ، وعن
يمينه زوجته الصبية الفاتنة ٠٠ بشفتيها القرمزيتين المثلثتين وأنفها
الدقيق وبشرتها الشديدة النقاء ٠٠ وجسدها الذى يحس الناظر اليه
سخونته دون أن يمسه ٠٠ والذى يشعر بدفئه دون حاجة منه لأن
يحتويه بين ذراعيه ٠٠ فهو أشبه بجمرة ملتهبة تشع بالحرارة
والدفء ٠٠ فهى امرأة قد لا تخطئ كثيرا اذا ما سميناهما : « امرأة
ساخنة » .

وعن يساره سار تابعه الوفى الأمين ٠٠ دقيق تقاطيع الوجه ٠٠
حلو الملامح ، قوى الجسد ، متين البنيان ، وقد رمى ببصره الى الأفق

البعيد ٠٠ وان كان لا يفتا يلقي بين آونة وأخرى بنظرات خاطفة الى وجه الرجل السعيد المغتبط :٠ وجه المرأة القلق المتبرم ٠٠ الذى كان يبدو فيه واضحا مدى نفورها من الرحلة ومن وعاء السفر .
وطال بهم الرحيل ٠٠ ومرت بضعة أيام والقافلة جادة فى السير ٠٠ والرجل كما هو ٠٠ يكسبو وجهه قناع من الرضى والغبطة ، وامراته المخلصة عن يمينه ، وتابعه الوفى عن يساره . ممعنا فى السير لا تبدو عليه نية وقوف ٠٠ حتى بدأ القلق والتبرم الذى يلوح على المرأة ينقلب الى خوف حبيس يعتمل فى نفسها ، وتبدو بوادره فى تلك النظرات الحائرة التى تتبادلها مع الفتى من وراء ظهر الرجل .

وأخيرا ٠٠ وبعد أن عيل الصبر ٠٠ ونفذ الاحتمال ٠٠ اشار الرجل بالوقوف ٠٠ فتنفست المرأة الصعداء ، وأحست بالكثير من الراحة ٠٠ الراحة الذهنية ٠٠ فقد أدركت أن الفرصة ستسنع لها بأن تفضى الى الفتى بتلك الهواجس ٠٠ التى اصطخبت فى صدرها طوال الطريق ٠٠ والتى منعها ظل الرجل القائم بينهما من أن تفضى اليه بشئ منها ٠٠٠

وأمر الرجل بأن تنصب الخيام ٠٠ فوضعت خيمة له فى الوسط ، وخيمة لامراته على يمينها ٠٠ وأخرى لتابعه على اليسار ٠٠ أما بقية الحاشية فقد وضعت خيامها على مسافة بعيدة بعض الشئ .
وكان الظلام قد أقبل ٠٠ فأمر الرجل بأن يذهب كل الى خيمته ليستريحوا ٠٠ ثم يبدأوا الصيد فى الصباح .

واستقر القوم فى خيامهم ، وأغمضوا جفونهم وراحوا فى سبات عميق ٠٠ وخيم على المكان سكون الليل ٠٠ حتى تنفس الصبح ٠٠ فاذا بأصوات تشق أجواز الفضاء ، واذا بالمرأة قد أقبلت على زوجها فزعة مرتعدة ، وهى تصيح فى صوت مرتجف :

- لقد قضى علينا .. لقد أوقع بنا اللصوص الخونة .. لقد ذهب الرجال جميعا حاملين معهم كل شيء .. وتركونا بلا ماء ولا غذاء .. تركونا لنلقى حتفنا في هذه البقعة المفقرة الوحشة .. لقد أخذوا معهم كل شيء .

وفى نفس اللحظة أقبل الفتى صائحا فى دهش وفزع :
- يا سيدى لقد تأمر علينا الرجال .. لقد فروا فى جنح الليل .. وتركونا ليفتك بنا الظما والسغب .

وقام الكهل من قراشه ببطء وأشار اليهما أمرا أن يكفا عن الصياح وقال فى هدوء : « لم يفر الرجال ! أنا الذى أمرتهم بالعودة ! » .

وبدرت من الاثنين صيحة دهش ، وفغر كل منهما فاه ، وحملق بعينيه متسائلا . وأردف الرجل يقول بلهجته الهادئة :

- ان هناك أمرا أريد تسويته بيننا . ولست أرغب أن يبلغ أذان الرجال منه شيء .

وقهمت المرأة . وفهم الفتى .. وشحب وجهاهما شحوبا شديدا .. واستمر الرجل يقول :

- سأخرج عن التلميح الى التصريح . وسأقصص لكما كل الانصاح .. ان المرجفين يتحدثون عن أشياء شائنة تجرى خلف ظهري .. ويقولون ان امرأتى قد خانت العهد ولوثت بالأقذار ذيلها وذيلي .. اتريان فى قولهم حقا ؟

وأجابت المرأة فى صوت مبحوح وأنفاس مبهورة :
- انهم فى قولهم لكاذبون .. أقسم انها أراجيف باطلة كاذبة .
وانها زور وبهتان .

وحول الرجل نظره الى الفتى قائلا :
- وانت .. ما قولك ؟

وصمت هذا برهة قبل أن يجيب فى صوت خفيض :

– لا فائدة من الإنكار .. لقد حدث ذلك الشيء الذى دار بخلدك ،
والذى تحدثت عنه الناس .. لقد حدثت تلك الأشياء التى وصفتها
بأنها شائنة .. وأنها خيانة للعهد وتلويث بالأقدار ، وإن كنت أرى
أن الألفاظ التى استعملتها ليست ملائمة تماما .. ولكن ماذا تنبئ
الألفاظ .. وماذا تستطيع أن تغير من حقيقة الواقع .. ما دامت
الأشياء قد حدثت فعلا .. ولكنى أود أن أقول لك أن من الخطأ أن
تلقى تبعه ما حدث عليها هى .. أو على أنا .. لقد كنا مسوقين
مقودين .. مسلوبى الإرادة .. فاقضى التصرف .. حمل القدر
لومك إذا أردت اللوم .. فقد شدنا بوثاق ودفعنا دفعا إلى هـذا
المصير .. لقد وهبنا للحب .. وكان من العسير علينا أن نرد الهبة .
وأجاب الرجل بصوت يقطر مرارة :

– هبة القدر .. لقد دفعت أنا ثمنها غاليا .. لقد أعطاكم القدر
هبة من حسابى الخاص . ولكن ألم أهب لك أنا من قبل كل ما
استطعت ! ألم أطعمك من جوع وأؤمنك من خوف ! ألم انتزعك من
برائن الشقاء لأجعلك لى ابنا حبيبا وتابعا وقيا ! ؟ لشد ما كفرت
بنعمتى وكنت من الجاحدين . ما أشبهك معى بتلك الأفعى التى كان
منقذها أول من لدغ منها .

ثم التفت إلى المرأة موجهها إليها الحديث فى سخرية اليمه :

– وأنت .. أنت أيتها الطاهرة النقية .. المخلصة الوفية . هل
تمتعت أيضا بهبة القدر ؟ . أو لم يكفك ما وهبت لك من عطف وحب ،
وما هيأته لك من حياة ناعمة راضية هائلة ؟

ثم اشتدت لهجته وبدأت فيها رنة غضب مكتوم حين أردف قائلا :
– ولكن ما لنا وللتأنيب والتثريب ، وماذا يجدينا الكلام بعد أن
وقعت الواقعة . والكلام لم يعد وسيلة للعلاج لأن علاج الفعل يجب

أن يكون فعلاً مثله .. أجل ليس أمامنا إلا أن نحسو العار ونغسل
الخطيئة .. ليس أمامنا إلا أن ننكر قول القائل :

« خير للإنسان أن يموت شريفاً من أن يعيش يلاً شرف » *

وبدا الفزع على المرأة وهمست في نبرات مرتجفة :

– لست .. لست تنوى قتلى ؟

وتقدم الفتى بخطوات ثابتة .. وقال :

– إذا كان لا بد لك من أن تريق دماً على جوانب شرفك الرفيع
حتى يسلم من الأذى .. فليكن ذلك الدم دمي .. وإذا كانت هناك
جريرة فضعها في عنقي وأتركها هي .. لأنها لا نذب لها ..

وهز الرجل رأسه ببطء وقال بصوت ملئ باليأس :

– بل الذنب كله ذنبها .. لقد كانت هي منبع الشر وأصل
الخطيئة . وهي التي يجب أن تستأصل .. أما أنت فساضع مصيرك
بين يديها .. أنها هي التي ستقرر موتك أو حياتك ..

وحملق الاثنان فيه بدهش وذهول .. ولم يفهما ما يعنيه بقوله
.. واختفى برهة .. ثم عاد وقد حمل في يده جرة ماء ، ووجه
الحديث إلى المرأة قائلاً :

– هذا هو كل ما تبقى لنا من الماء ، وهو يكفي لأن ينقذ واحداً
منا حتى يعود إلى المدينة .. أما الباقيان فلن يكون أمامهما إلا
الموت ظمأً في هذه البقعة المقفرة ، وستكونين أنت أحدهما ، أما الثاني
فعليك أن تختاريه .. أجل ! أعطى الجرة من تشائين .. أعطيه
الجرة فيذهب هو وأموت أنا بجوارك ، أو أعطنيها فأعود أنا وأترككما
لتموتا سوياً ..

وبدا على المرأة ذهول وتحجرت عيناها في مقلتيهما وهي تحملق
في الجرة ، وبدت شفتاها جافتين باهتتين ولم تنبس ببنت شفة !
واستمر الرجل في قوله :

- فكرى جيدا ٠٠ انك تملكين فى يدك حياة أحدها ، انا لا اطلب منك أن تجيى الآن ، بل سأعطيك فرصة للتفكير ٠٠ عودى الآن الى خيمتك ، وسنتنظر حتى تهبط الشمس ، عليك حينئذ أن تقررى ما تشائين .

وعادت المرأة الى خيمتها وقد حملت الجرة ، وبدت فى مشيتها مهذمة محطمة ، وسار الرجل والفتى كل الى خيمته .

ومرت الساعات فى سكون مطبق مخيف ، وجلس الفتى وقد دفن وجهه بين يديه واستغرق فى تفكير عميق ٠٠ ليتها تعطى الرجل الجرة ٠٠ حتى يموت هو بجوارها ٠٠ ليتها تفعل ذلك فليس أحب الى نفسه من أن يموت معها ٠٠ ولكنه كان يحس أنها ستحاول انتقاذه ٠٠ وكان يكره ذلك ٠٠ لأن الحياة بدونها خير منها الموت ٠٠ على أية حال ان خير ما يفعله لو أعطته الجرة هو أن يحطمها أمامها ، ويبقى ليموت معها .

وأخيرا بدا قرص الشمس الذهبى وقد لامس حافة الأفق ، وأخذ يهبط رويدا رويدا ، حتى اختفى تماما ٠٠ وقام الفتى بخطى متثاقلة واتجه الى خيمة الرجل ٠٠ ووقف كلاهما ينتظر المصير الذى ستحكم به المرأة .

وطالت وقفتها ، والمرأة ما زالت فى خبائها ٠٠ فتقدم الاثنان ٠٠ حتى وصلا الى الخباء ، وارتفع صوتاهما يناديان المرأة ، ودفع كل منهما برأسه الى الداخل ٠٠ يقلب بصره ذات اليمين وذات اليسار ، ويدرت من الفتى صيحة عجب ، فقد كان الخباء خاليا ! .

وفى مؤخرة الخباء بدا طرف منه مرفوعا وظهرت على الأرض آثار زحف المرأة الى خارجه ٠٠ ولم يتمالك الفتى أن صاح فى دهش شديد :

- لقد فرت ! لقد أخذت هى الجرة ! لقد وهبت نفسها الحياة !

لقد سخرت منا كلينا :

ولم يبد على الرجل أى دهمس . بل نظر الى الفتى فى كثير من
الازدراء ، وأجابه بهدوء ورزانة :

— عليك نفسك ! لقد كنت أعلم انها ستفعل ما فعلت . ان المرأة
انانية . . انها تحب نفسها أكثر مما تحب أى رجل . أما حبها لأى
رجل فيختلف بقدر ما يعطيها من المتعة . . متعة المال ، أو متعة
الجسد ، أو متعة القلب . . ان المرأة تحب نفسها أولا . . ثم تحب
من الرجال أقدرهم على ارضاء نفسها . . .

وأطرق الفتى برأسه الى الأرض . ثم تساءل بصوت خفيض
يحمل فى نبراته الأسى والألم :

— أكنت تعلم أنها ستفر بالجدة ثم تركتها تفر . . أتركها تتسلل
بحياتها فوق جثثنا ؟ !

— ليس فوق جثثنا . . بل تحت أقدامنا . . كما تتسلل حشرة
ضئيلة حقيرة . . اننا لن نموت عطشا ! لأن الرجال لم يذهبوا كما
ادعيت الى غير عودة . . بل سيعودون فى الصباح ، وسنبدا الصيد
من الغد .

وصمت الرجل برهة ثم أردف :

— أتراك قد عرفت المرأة ؟ أتراها تستحق أن تفتديها بحياتك كما
حاولت أن تفعل . . أتراها تستحق أن تكفر بنعمتى من أجلها ؟ أم
عرفت أنها مخلوق أنانى لا يحب سوى نفسه ؟

مكتبة مصير
٣ شارع كامل صدقي - النجالة



التمن ٢٧٥ قرشا

دار مصدر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاؤه